ثورة سورية الكبرى

أسرارها وعواملها ونتائجها

تنبؤات خطيرة عن كارثة فلسطين الحاضرة

دار الجزيرة للصحافة والنشر
عمان



الثمن
ليرة ونصف

مذكرات الزعيم الشهيد الدكتور عبد الرحمن شهبندر

Thawrat Sūrīyah

ثورة سورية الكبرى

أسرارها وعواملها ونتائجها

مذكرات زعيمها الشهيد الدكتور شهبندر

منشورات دار الجزيرة
(المملكة الاردنية الهاشمية)
عمان : صندوق البريد - ١٤٩
الهاتف - ٣٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الزعيم الشهيد

بقلم رفيقه في الجهاد دولة السيد حسن الحكيم
رئيس مجلس وزراء سورية الاسبق .

●

في السادس من تموز عام ١٩٤٠ اغتالت يد اثيمة الزعيم الخالد المغفور له الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، فبكت الامة العربية فيه رجلاً كامل الرجولة في حياته الخصبة القوية، وخسرت بفقده ، زعيماً مجاهداً راسخ العقيدة صادق القومية .

ومع ان الفقيد الكبير نشأ طبيباً بارعاً وأديباً ألمعياً وخطيباً مفوهاً ، فقد ابى عليه اعتزازه بقوميته وهو المؤمن بها والمخلص لها ان يقوم بخدماته الانسانية والادبية دون ان يقوم الى جانبها بواجبه نحو وطنه ، فراح طيب الله ثراه يؤدي هذه الرسالة بكثير من التضحية والاخلاص ،ويرفع صوت العروبة عالياً مدوياً دون ان يتراجع طوال حياته عن اهدافه القومية العليا او يقف منها في

منتصف الطريق بالرغم عن كل ما اصابه من سجن وتشريد واضطهاد وتعذيب ، وكان رحمه الله يعلّم محب الحرية كيف يغنيها فيلهب المشاعر ، ويكتب ويخطب فيهز قصور الظلم ، ويستبسل في ساحات الجهاد لكي تتساقط عن وطنه نبال الاستعمار ولكي يرى علم العروبة الخفاق يرفرف فوق دار عز واسعة النطاق .

ومن بواعث الاكبار لشخصيته الفذة حرصه الشديد على اداء رسالته القومية والفنية والادبية اكمل اداء، فانك اذا رأيت اعماله الخالدة في سبيل امته وبلاده حسبت انه تعهد هذه الرسالة وحده دون مشاركة احد له فيها ، واذا ردد من كتب لهم الشفاء على يديه من مرضاه معجزاته في فنه خلت انه لم ينصرف في هذه الحياة الا الى اتقان مهنته دون اي شيء آخر ، واذا طالعت مادبج يراعه من مقالات علمية وادبية وسمعت مافاه به من خطب كلها بلاغة وفصاحة ظننت انه لم ينكب في دنياه على غير العلم والادب وقلت سبحان الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .

فيا ايها الزعيم الخالد:

ان هذه الامة التي جاهدت في سبيل حريتها بكبرياء وضحت من اجل ذلك بمالها ورجالها بسخاء الى ان منّ الله عليها - بعد جهاد شاق وطويل - بنعمة الاستقلال، لو اقامت اليوم تمثالا من الذهب وكتبت مدحك على اديم الارض من اقصى شمال البلاد الى اقصى جنوبها لكان ذلك دون قدرك .

طيب الله مضجعك ، وسقى الغيث ثراك فقد اديت الامانة وبلغت الرساله وارضيت الله وارضيت الوطن .

كلمة الناشر

●

في منتصف الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت الواقع في ٦ تموز ١٩٤٠ رن جرس الهاتف في مكتب جريدتي الجزيرة رنّاً عنيفاً هلعت له نفسي فأمسكت سماعة التلفون وقلت :

– من المتكلم ؟

– المقر العالي سمو امير البلاد المعظم يرغب في الاتصال بك، انتظر قليلاً !!...

وبعد ثوان قليلة واذا بصاحب السمو الملكي الامير عبد الله يتكلم بصوت اجش ويقول :

– تيسير

– نعم مولاي

– هل للدكتور شهبندر انجال ، وما اسم نجله الاكبر ...

– نعم يا سيدي له ستة انجال اكبرهم فيصل .

فأثار هذا السؤال هواجسي وقلقي ودار في خلدي في تلك

اللحظة الخاطفة كل شيء الا ان يكون الدكتور الزعيم قد اصيب بمكروه. ولكن سموه قطع هذه الهواجس وتابع حديثه قائلاً :

- واين يقيم نجله المذكور ؟

- في مصر يا سيدي .

- وما عنوانه .

- شارع الملكة نازلي : القاهرة .

ثم اردفت قائلاً :

- ولكن الدكتور موجود الآن في دمشق فهل ثمة ما يدعو للاتصال بنجله يا صاحب السمو !

فقال سموه بصوت متهدج أجش :

- تعال إلى القصر حالاً لتقف على جلية الامر .

فبادرت على الفور وتوجهت الى القصر وانا في حالة نفسية ممضة . ولما وصلت الى باب السرادق (وكان سموه يؤثر الانتقال الى السرادقات الخاصة التي يأمر بنصبها في فصل الصيف) رأيت سموه ممتقع الوجه ، يقطع أرض السرادق بخطى حثيثة جيئة وذهابا ، وعلامة الاضطراب ترتسم على وجهه .

وقد بادرني بقوله : أعزيك يا تيسير بوفاة الدكتور !!

فشعرت بأن قلبي يكاد يجتث من مقره ونفسي تكاد تطير شعاعاً وسألت سموه من ؟ الدكتور شهبندر ؟ وكيف ، أمات أم قتل ؟

فقال سموه : لقد قتل قبل ساعات قليلة بأيد مجرمة أثيمة، وأعددت برقية تعزيه الى نجله سأرسلها الآن .

قلت : قد يكون ذلك مجرد اشاعة ياسيدي أرجو ان تتثبتوا من صحة النبأ قبل تطيير البرقية فالدكتور يتمتع بصحة جيدة وقد اتصل بي قبل يومين . فقاطعني سموه محتداً : لقد قلت لك أنه قتل، وقد نقل الي النبأ قبل هنيهة المستر كركبرايت المعتمد البريطاني، ثم تلا علي سموه نص البرقية التي قرر ارسالها وهي :

المحامي فيصل بك الشهبندر

شارع الملكة نازلي القاهرة

أرجو ان اعرب عن اسفي الشديد للعاقبة التي مني بها والدكم الشهيد بواسطة الأيدي الاثيمة التي ستنال قصاصها ان شاء الله في الدنيا والآخرة .

عمان ٦/٧/١٩٤٠ عبدالله

●

وقد تولتني رعشه شديدة وغمرني وجوم عنيف لم أشعر به مدة حياتي ثم انهمرت الدموع من مقلتي انهمار الديمة الوطفاء فأخذ سموه (رحمه الله) يهدهد من آلامي ويلطف من أحزاني ثم خاطبني قائلًا : هنيئاً للزعيم البطل هذه الميتة الكريمة ، والوقت لايتسع للبكاء ، بل عليك ان تبادر حالاً وتنعي الفقيد وتذيع نبأ هذا الاستشهاد على افراد الشعب .

ثم استطرد سموه قائلًا : وسأعطي التعليمات الى قاضي القضاة لتقام صلاة الغائب على روح الشهيد الخالد في جميع مساجد الأردن . . .

فنهنهت من دموعي، وودعت سموه قاصداً مكتب جريدة الجزيرة حيث أصدرت ملحقاً خاصاً نعيت فيه مصرع الزعيم الجليل .

وقد جاء في ختام الملحق مايلي :

فيا ايها الشعب العربي الكريم :

لقد صرع الزعيم الشهبندر بأيد اثيمة لانه الخاص لوطنه المؤمن بربه غير المترخص فيما اوجبه الله والشرف من حقوق نحو بلاده.

لقد قتل لانه ترفع عن أن يتنزل الى ما طمح فيه القتلة الفاكون من حطام هذه الدنيا ومن مناصب يتولونها بالذلة والمسكنة أو بسفك الدماء التي حرمها الله وحرمتها شرائعه والتي نهت عنها الانسانية وقوانينها!

ايتها الامة العربية !

ان قتل الشهبندر هو في الواقع فت في العضد وافناء للخيار وتقليل لعدد الرجال الذين قلماتجود بأمثالهم الاجيال . فالى أولئك الذين لا يدرون ما هم فاعلون نوجه هذه الكلمة : قتلتموه ؟ أمن أجل انه لم يتول اي منصب في عهد الانتداب ؟ ام لأنه قد آن الاوان الذي سيتقدم فيه هو وامثاله الى تخليص الاوطان وجعلها نقية طاهرة من كل خبيث وشيطان . **هل لأولئك الذين أمروا من ارتكب هذه الجريمة ان يقدموا قائمة تحتوي اسماً واحداً من لهم مثل مآثر الدكتور شهبندر ، من براءة كاملة ونية صالحة وقصد** سليم ؟ وان لم يكن بالعدو لمن عاداه ولا بالحاقد على من انتقصه ، ولكن كان يرجو الخير ويأمل الاصلاح لأولئك الذين فعلوا فيه ما فعلوا . انها الفتنة فتحت ابوابها . فعلى رسلكم ايها الناس فانه لا بد للقاتل من القتل ولو بعد حين .

●

وقد يكون كاتب هذه السطور أجدر الناس بالبكاء على الفقيد العظيم (الدكتور شهبندر) واكثرهم تقديراً لفداحة الخطب وهول الفاجعة وعظم الخسارة التي منيت بها البلاد العربية جمعاء (ولا اقول سورية وحدها) بفقد هذا الزعيم العبقري الخالد الذي يعتبر حقاً (نادرة البطون) فقد جمع من المواهب والمزايا والخصائص ما لا يتوفر لزعيم مثله في هذا العصر ، وإليه يعود الفضل في اذكاء الروح الوطنية والقومية في سورية وحفز الهمم لمكافحة الاستعمار على اختلاف ألوانه ومذاهبه . . .

وقد أتيح لكاتب هذه السطور الاتصال بالفقيد الغالي اتصالاً وثيقاً مدة سبع سنوات اثناء وجوده في مصر فراراً من بطش الفرنسيين ، وفي دمشق عقب الغاء احكام الاعدام التي أصدرها الطغاة الغاصبون بحق الزعيم ورفقائه الأحرار وكاتب هذه السطور. فلمس من كرم أخلاقه وسمو مبادئه وصدق وطنيته وتفانيه في حب بلاده وحسن بلائه في تحريرها واسعادها ، وانقـــياد ذهنه وحدة ذكائه ، وعلو كعبه وسعة اطلاعه ، وطلاقة لسانه ، واشراق ديباجته ، وقوة أسلوبه ، وتفوقه في الطب والعلوم الاجتماعية والتاريخية ، ما جعله كبير الامل واسع الرجاء بأن قضية استقلال سورية ووحدة العرب ستتحقق على يديه . ولا جرم بأن هـــذا الاستقلال الذي تنعم بـــه سورية في الوقت الحاضر ، والنهضة القومية الزاهرة التي ترفل في حللها ، والوعي الشامل الذي أخذنا نجني ثماره إنما هو أثر لامـــع من آثار توجيه الشهبندر ونتيجة رائعة من فضائل كفاحه وجهاده ، ونور ساطع من أنوار زعامته

الخالدة رغم أنوف الخونة والحاسدين والمستوزرين الذين لم يتورعوا عن مناوأته والكيد له بمختلف الوسائل حتى بلغوا أمنيتهم في القضاء عليه واقصائه عن ميدان المعركة .

***

وسيتلو القراء في الصفحات التالية مرحلتين من مراحل جهاد الشهبندر والشعب السوري . اولاهما في ابان الاحتلال الفرنسي حينما ألهب مشاعر البلاد لدى زيارة المستشرق الامريكي الكبير وصديق العرب العظيم (المستر كراين) للعاصمة السورية ، وكانت هذه الحركة المباركة التي هيأها الزعيم الشهيد نقطة الانطلاق في تحرير البلاد والشرارة الاولى التي اندفع منها أوار الثورة السورية الوطنية التي تعتبر المرحلة الثانية من مراحـــل جهاد الشهبندر والشعب النبيل ...

أما المرحلة الثالثة التي انتهت بجلاء جيوش الاحتلال وتحقيق الاستقلال فقد يكون من سوء حظ البلاد أن لايشاركها في مباهجها وافراحها ذلك الزعيم الذي شاطرها آلامها واتراحها وقضى نحبه وهو يذود عن حقوقها وينافح عن امجادها ويجود بنفسه على مذبح حريتها (والجود بالنفس اقصى غاية الجود) .

عمان تيسير ظبيان

مؤسس دار الجزيرة

كلمة مقتضبة
عن حياة الزعيم الشهيد

●

ولد الفقيد في دمشق عام ١٨٨٦ وتلقى العلوم الابتدائية في مدارس الحكومة فيها ، ثم دخل جامعة بيروت الاميركية فنال شهادتها العلمية في عام ١٩٠١ ، وكان الخطيب السنوي للجمعية العلمية العربية .

وعاد الى دمشق فانضم الى حلقة اصلاحية على رأسها المرحوم الشيخ طاهر الجزائري ، وحدثت في تلك السنة تطورات علمية واجتماعية وسياسية في البلاد ، وقد اقتيد الفقيد على اثرها الى المحاكم بتهمة اشتراكه في تأليف رسالة موضوعها (الفقه والتصوف) وبأنه كتب مقالاً في المقطم في موضوع خلافة السلطان عبد الحميد ، ولم ينقذه من هذه التهمة وغيرها سوى صغر سنه .

وفي عام ١٩٠٢ عاد الى الجامعة الاميركية فدرس اربع سنوات اخرى ، ونال شهادة ممتازة لم ينلها أحد قبله لانه كان الاول في صفه في كل سنوات الجامعة ، وكان خطيب السنة ايضاً ، وقد القى خطاباً هاماً في (التسامح) وحضر الحفلة من شهداء

العرب عبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي. وقد اغرورقت عيناها بالدموع لما شاهداه من نبوغه وللامتيازات التي نالها من الجامعة .

وقد عينته الجامعة الاميركية استاذاً وطبيباً لتلامبذها ، وفي سنة ١٩٠٨ عاد الى دمشق واتصل مع المرحوم الشيخ عبد الحميد الزهراوي باحرار الترك ،وفي تلك السنة حدث الانقلاب العثماني فكان الفقيد عاملاً كبيراً في تأسيس الجمعيات العربية الحرة في دمشق والملحقات . ولما ظهر ان في برنامج الاتحاديين محاولة تتريك العناصر العربية هب مع احرار العرب الذود عن حقوق العرب القومية .

ولما نشبت الحرب العالمية كادت تعلق مشنقته لولا فراره من دمشق فوصل الى العراق ومنها ذهب الى الهند فمصر حيث ادى خدمات جلى للقضية العربية ، وهناك قطعت له الحكومة البريطانية واسطة من اخوانه السوريين عهد السبعة وهو ينص على ان «كل بلاد عربية يفتحها الجيش العربي تبقى عربية مستقلة» .

وعاد الى دمشق في نيسان ١٩١٩ فهيأ مع اخوانه في الاحزاب المختلفة الحملة الكافية لاظهار البلاد امام اللجنة الاستفتائية الاميركية بالمنظر الذي تنشده من حرية صحيحة واستقلال تام ، ومن ذلك الحين انعقدت اوصر الصداقة بينه وبين المستر كراين رئيس اللجنة .

وفي ايار سنة ١٩٢٠ تولى وزارة الخارجية في العهد الفيصلي ،

وحالما دخل الفرنسيون الشام ذهب الى القاهرة . وفي تموز ١٩٢١ عاد الى دمشق فأخذ في تنظيم الاعمال السياسية وفي نيسان ١٩٢٢ قاد الحركة (الكرانية) التى انتهت بالحكم عليه عشرين شهراً وبنفيه الى جزيرة ارواد واعتقاله في قلعتها . وبعد عشرين شهراً خرج من السجن فشد الرحال الى اوروبا واميركا فقام بالدعاية اللازمة لبلاده واتسع له ما لم يتح لغيره من محادثة كبار الرجال في القضية العربيـــة حيث ان حزب المحافظين في لنـــدن دعاه فالقى خطابا مطولاً في (ويستمنستر) في حفـــلة ضمت كبار وزراء انكلترا فكان له اطيب الصدى ونشرته الصحف الانكليزية .

وفي تموز ١٩٢٤ عـــاد الى دمشق حيث الف حزب الشعب وتولى تنظيم البلاد سياسياً ، وفي سنة ١٩٢٥ نشبت الثورة السورية فساهم باعدادها وتنظيمها والاشتراك بها ، وعند انتهائها قطـــع الصحراء الى العراق سيراً على اقدامه ، ومنها امتطى طائرة الى القاهرة فقضى فيها بعيداً عن وطنه الذي احبه بضعة عشر سنة ، وعاد الى دمشق في سنة ١٩٣٦ حين صـــدر العفو عن المبعدين السياسيين فاستقبلته البلاد استقبال الملوك الفاتحين . وفي سنة ١٩٣٧ ذهب الى جنيف فلندن حيث القى خطابا هاماً عن قضية فلسطين وتحدث في هذا الموضوع الى كبار رجالات انكلترا ثم جعـــل دمشق مقر اقامته لينفق الأيام الباقية من حياته في خدمة البلاد ، ولكن يد المؤامرة الدنيئة المدبرة بأيدي الطامعين الجبناء والمبيتة لتحقيق اغراض حقيرة ابت الا ان تفقده حياته وتطفىء هـذا الكوكب الساطع في الساعة الحادية عشرة والنصف ظهر يوم السبت في ٦ تموز سنة ١٩٤٠ الموافق ١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٩ .

الشرارة الأولى

حوادث المستر كراين

في هذه الصفحات يتحدث الزعيم الشهيد عن الحوادث الرهيبة التي وقعت عام ١٩٢٢ عند زيارة المستر كراين للبلاد السورية . قال رحمه الله :

كانت البلاد السورية تتمخض بالحوادث وكانت الشكاوى من سوء الادارة الفرنسوية قد بلغت عنان السماء حتى ضج الناس من استفحال الضائقة الاقتصادية وأصبحت النفوس متلهفة لاستقبال تطورات جديدة تنقذ البلاد من محنتها وبلائها. وعلى العموم فقد كانت الاحوال على جانب عظيم من الاضطراب وتبلبل الافكار وان كانت تلوح في الظاهر أنها هادئة بحيث كان يتوهم المستعمرون أن الرياح تجري بما يشتهون والامور تسير على ما يحبون ، ولم يدر بخلدهم أن هذا السكون الوقتي ستعقبه عاصفة هوجاء يكون لها صداها وأثرها .

وفي صباح السبت الواقع في اول نيسان ١٩٢٢ كنت جالساً في مكتبي اذ تناولت رسالة عليها طابع بريد يدل الختم عليه انه صادر من دمشق. فلما فضضتها وجدت انها من الاستاذ

« نيكولي » رئيس الجامعة الاميركية وتاريخها ٢٩ مارس سنة ١٩٢٢ويقول لهفيها إن المستر كراين رئيس لجنة الاستفتاء الاميريكية التي حضرت في عهد الملك فيصل يصل الى دمشق قريباً . فركب معالي الزعيم سيارتي وتوجهت الى المحطة واستقبلته هناك واتفقنا على موعد للاجتماع .

وفي اليوم التالي توجهت الى فندق داماسكوس بالاس حسب الموعد ، وهنـــاك اجتمعت بالمستر كراين اجتماعاً خاصاً فبدأني بالحديث التالي :

انني قدمت الى هنـا بقصد التحقيق وذلك ان مجرى السياسة اليوم يتطلب اظهار تقريرنا المشترك الذي كتبناه مع اخواننا اعضاء اللجنة الاميريكية التي استفتت بلادكم سنـــة ١٩١٩ فهل كانت استعلاماتنا صحيحة يا ترى ؟ أريد منك أن تجمعني بأبناءهذه البلاد ،ولا سيما العلماء (المشايخ) منهم لأرى هل حصل شيء من التبدل في آرائهم وهل كنا مصيبين في أخبارنا التي جمعناهـــا فى تقريرنا .

فأجبته بانني على استعداد لتحقيق رغبته واتخــاذ الوسائل اللازمة لايقافه على حقيقة الحالة في البلاد .

ثم اخذت اواصل جهودي واجتمع بكبار النافذين واحدثهم فيما يجب عمله ،واخيراً اتفقوا على الاجتماع في حديقة الشرباتي في زقاق الحيات على طريق الصالحية ، وأعدوا المطالب التي يجب عرضها على المستر كراين والتي هي ضالة الجميع وخلاصتها :

(١) الاستقلال التام

(٢) الوحدة السورية العربية
(٣) ترك الخلافة في بني عثمان

وفي الوقت المعين للاجتماع ذهبت الى المنزل وبينت للزائر الكريم فكرة الاجتماع في الحديقة بدلاً من الحجرة الضيقة فقبل مع السرور فركبنا السيارة وفي الساعة الثالثة مساء وصلنا الى الحديقة في بستان الحيات حيث كان بانتظارنا لفيف كبير من العلماء والأدباء والتجار والأعيان وأصحاب الاملاك والمزارعين والموظفين . ولما رأونا استقبلونا بالتصفيق والهتاف فجلسنا بينهم وكان مع المستر كراين كاتم أسراره المستر برودي .

سأل المستر كراين المجتمعين عن أحوالهم وهل لا يزالون على الآراء التي اطلعوه عليها يوم أتى مع اخوانه سنة ١٩١٩ لاستفتائهم فأجابوه كلهم بصوت واحد نعم .

وقد بدأ الحديث شيخ مشهور في دمشق الشام من المعروفين بتسامحهم وتساهلهم مع السلطات وهو المرحوم الشيخ أسعد الصاحب ،شيخ الطريقة النقشبندية وقد أخرج من جيبه أوراقاً هي في الواقع وثائق رسمية مرت على الحكومة ،وتتضمن الشكوى من أمر فظيع حدث في مقبرة البرامكة حيث دفن كلب لضابط افرنسي في قبر أحد أئمة المسلمين وبنيت مراحيض للجنود السنغالية قبالة اضرحتهم .

ثم تناول الحديث الأستاذ حسن بك الحكيم من الوجهة المالية وأفاض وابدع ولم يترك زيادة لمستزيد وتبسط خصوصاً في مسألة الضرائب التي اثقلت كاهل الاهلين .

ثم تكلم آخرون في تعداد مساوىء الحكم الافرنسي . وكان المستر كراين يدون ما يسمعه باهتمام ثم انفض الاجتماع.

وقد زار المستر كراين مقبرة البرامكة حيث شاهد بعينه تلك المناظر المؤلمة وكيف اقدم الفرنسيون على اهانة الديانة الاسلامية والازدراء بالآثار العلمية باعمالهم .

وفي ٣ نيسان ذهب المستر كراين الى المعهد السوري الذي تديره الآنسة أليس قندلفت فشكرها المستر كراين على ما رآه من التنظيم والعناية وبالنظر لما بلغه عن كفاءتها ونبوغهـــا قرر ايفادها الى الديار الامريكية لاتمام دروسها العليا على نفقته . وقد بر بوعده وأتمت الآنسة تحصيلها العالي وحصلت على شهادة ممتازة من جامعة كولومبيا وعينت في وظيفة عالية بالعراق .

وفي ٤ نيسان لبى المستر كراين دعوة ابناء حي الميدان. وكان الاجتماع في حديقة حسن بك الحكيم فاحتشد هناك نحو مسائة من الاعيان واركان الميدان . وقد أخذ القوم يبسطون شـــكاويهم من السلطة المحتلة وسرد الاستاذ سعيد بك حيدر حديثاً قانونياً ممتعاً من وجهة الشؤون العدلية والقضائية، وما يتخذه الفرنسيون من التدابير للتأثير على سير العدالة .

وتكلم المرحوم عبد الغني افندي عرابي من كبار تجـــار الطحين واعيان الميدان وبيّن الاضرار التي لحقت البلاد من مزاحمة الشركات الفرنسوية المطاحن الوطنيـة ثم تكلم كثيرون في هذه المواضيـع .

وذهب المستر كراين من الميدان الى المهاجرين حيث ضرب

موعداً لمقابلة نساء الشهداء في منزل المرحوم شكري بك العسلي، وسمع منهن نفس الأماني الوطنية التي كان يسمعها في الاجتماعات السابقة .

ثم خرج من منزل العسلي وتوجه لزيارة الآنسة نازك العابد اذ كان على موعد معها فبينت له ما حل بمدرسة الشهداء التي انشئت في عهد الحكومة العربية وكيف اتبعت أحط الوسائل لاقفالها . وقد حاول المستر كراين ارسال الآنسة نازك العابد الى الديار الاوروبية على حسابه اسوة بالآنسة ألبس فندلفت فوافقت ولكن والدها عارض .

وفي ٥ نيسان لبى دعوة الغداء في بستان القصاع فوجده غاصاً بعلية القوم وكبار المتنفذين من علماء وقواد عسكريين وغيرهم. وبعد ان سمع تجويد القرآن من القارىء الشهير السيد محمد الحلواني واعجب به كل الاعجاب ألقى الاستاذ محمد الشريقي خطاباوطنيا رائعاً، ثم تناولوا طعام الغداء . وفي اثناء انصراف المستر كراين تقدم طلاب معهد الحقوق وقدموا له المطالب الثلاثة المعلومة .

وفي صباح الخميس ٦ نيسان قدمت للمستر كراين الوثائق والمستندات الرسمية التي قدمها اصحابها باسم المستر كراين .

وقد بذلت جهدي ليكون توديع المستر كراين على احسن ما يرام ،وكلفت بعض اخصائي لتنظيم العمل. وحوالي الساعة التاسعة من صباح اليوم المذكور نزلت مع المستر كراين من الفندق فوجدنا البهو مملوءاً بالمودعين ، فودعهم المستر كراين فرداًفرداً وخاطبهم بقوله : « ما أشد سروري برؤيتكم وأسفي لاضطراري

الى مغادرة مدينتكم . وسيكون الدكتور كنج الذي كان في لجنة الاستفتاء مسروراً جداً من نتيجة تحقيقي ، ثم انني اتيت لهذه البلاد في وقت لا يسمح لي سني في السفر ، ولكنني شئت ان أرى البلاد التي زرتها مع اصدقائي سنة ١٩١٩ ولا يمكنكم ان تقدروا السرور الذي يصيبها من نتيجة هذه التحقيقات البديعة . . .
تمسكوا بقضيتكم فانها عادلة وتوسلوا اليها بالوسائل العصرية لا بالطرق القديمة » فتعالى الهتاف من كل ناحية للاستقلال السوري والعربي والدكتور ويلسون والامة الاميركية والمستر كراين ، ونزل جنابه بعد ذلك وامتطى سيارته فاحطتْ بها مع بقيـــة المحتشدين الذين كانوا يعدون بالالوف وكانت الشوارع والشرفات غاصة بالجماهير المتدفقة .

اراد السائق ان يسير على بركة الله ولكن الحماسة اعترضتـــه ووقفت في سبيله فمنعته من السرعة التي كان يتوخاها . وبينما كان هذا الموكب العظيم يسير وقف شيخ مصري على مقدم السيارة وارتجل خطبة حماسية رائعة استهلها ببيتين جميلين يتضمنان معنى الاتحاد بين مصر والشام وختم خطابه باسقاط الانتداب فالتهبت عواطف المحتشدين وأخذوا ينشدون الاناشيد الوطنية وفي مقدمتها :

نحن لا نرضى الحماية	لا ولا نرضى الوصاية
نحن أولى بالرعـاية	لبني العرب الكرام

وكنت واقفاً على السيارة أترجم للمستر كراين معنى هـذه الأناشيد وألفت نظره الى جماهير المشيعين التي كانت تتزايد في

كل خطوة . وكان الباعة يرشون الزهور على السيارة والمحيطين بها، والاجانب يرفعون قبعاتهم احتراماً . ولما بلغت السيارة الطريق التي تحاذي سوق علي باشا التحق بها سيدتان وقفتا على رفها احداهما عقيلتي والاخرى شقيقة الشهيد شكري العسلي فحيتا المستر كراين وهتفتا للاستقلال وكان لعملهما أعظم تأثير في اذكاء العواطف .

ولما وصل الموكب الى قرب المجلس البلدي صاحت عقيلتي (لتحي الامة العربية) فدوت الساحة بالهتاف من كل جانب، وما تمالك بعض الموظفين الواقفين على شرفة دائرة الحكومة وهم بجانب الحاكم العام من التصفيق والهتاف لهذه الحياة الجديدة . وكان من جملة هؤلاء الموظفين الاستاذ زكي بك الخطيب مدير رسائل ديوان الحاكم العام، فكان جزاؤه الغاء وظيفته عقيب الحادثة فوراً. ولما صاح أحد المودعين (ليسقط الخائنون) أجابه النـــاس من غير اختيار مشيرين الى سراي الحكومة حتى اذا بلغ الموكب دائرة الشرطة اشتد الهياج وتعالى الهتاف باسقاط الخائنين اعداء البلاد . وما زال الموكب العظيم يسير حتى بلغ نزل فكتوريا فأشرت على السائق بان يقف لأجل الوداع فوقف وسكت الناس وسكنت الحركة فقلت بالانكليزية للمستر كراين : « **التفت الى ورائك يا سيدي واحفظ هـــذه الصورة التاريخية في قلبك وستمر على اوروبا واميركا فترى فيها افراداً بضمائر حرة لا يزالون يحبون الانسانية ويغارون على الحرية فاذكر لهم هذا المنظر الغريب واشرح لهم المعاني التي تقرؤها في وجوههم** » ثم قلت له بالعربية « فليحي الاستقلال التـــام ولتحي شجرة الحرية النامية والى

الملتقى ايها الرسول الكريم » (اشارة الى ما ذكره عن نفسه في بستان الحكيم من انه أتى رسولاً اميناً وسيعود رسولاً اميناً) .
ثم أشرت على الناس بأن ينفضوا من حوله فما ابتعدوا حتى رفع قبعته وانحنى للجموع فصفقوا له جميعـــاً ، وحينئذ ارخى السائق للسيارة العنان فسارت تطوي الطريق طيا ، وكان المستر بردي في تلك الاثناء واقفاً في السيارة وبيده آلة التصوير يصور بها المناديل المنشورة والايدي المتموجة في الهواء .

اعتقال الزعيم

سافر المستر كراين ، ولما عجزت الاجسام عن مجاراة سيارته سابقتها الأرواح وطوقتها القلوب وهي تنادي من اعماقهـــا على الطائر الميمون ولا يعلم أحد ما كتب للبلاد في اللوح المقدور .

ولما عادت الجماهير ، التفت حول الزعيم وحمله الشباب الوطني الحر على الاكتاف وهم يصيحون « ليحي الشهبندر » فكان يجيبهم « ليحي الشعب الذي ما داخله القنوط ولا خامره اليأس » .

ثم انفرط عقد المتظاهرين ، وذهب كل من الزعماء الى منزله وعمله حاسبين ان المسألة انتهت .

وفي اليوم التالي جاء شرطي الى منزل الزعيم وطلب منه ان يرافقه لدائرة الشرطة فاستمهله قليلاً وأخذ القلم وكتب الى الرئيس ويلسن ما معناه :

لي الشرف ان أقص على مسامع حضرة الرئيس السابق للولايات المتحدة واذكره انني أحد السبعة الذين وقّعوا على المذكرة التي تقدمت اليـــه (أي الرئيس ويلسون) بواسطة معتمد حكومته السياسي في القاهرة سنة ١٩١٧ وفيها رغائب الامة العربية ومن

دواعي اغتباطي وتعزيتي ان الايام قد دلت بأفصح دليل رغم أنف الدسائس على ان تلك الرغائب هي رغائب أمتنـــا المستضعفة . ثم قال له :

ان العهود الشريفة التي اقتطعها للنـــاس على جبل فرنون والمبادىء السامية التي نشرها بجانب مرقد واشنطون لا تزال مصدر الهام للمظلومين في الشرق والغرب ، وان الكارثة التي سعينا جهدنا لتجنبها وقعت كالصاعقة على رؤوس أمتنا ، فأخذت تسحقها تحت أقدامها . ويكفي ان أقول ان هتفة واحدة للحرية والاستقلال وللمبادىء السامية التي انطق الله بها الامة الامريكية على لسان رئيسها الكريم أدت بالحكومة المستعمرة الى اتخاذ قرار بتوقيفي وتوقيف بعض اخواني ، وربما نفينا جميعا بعد ذلك . وسيقص على حضرته صديقه الأمين المستر كراين ما رأى بعينيه وسمع بأذنيه في سورية من المظالم والمغارم التي بلغ صداها عنان السماء ولولا الشرطي المفوض المأمور بالقبض علي ، ونقره على بابي يستبطئني ويستحثني على مغادرة داري لكتبت له من تفاصيل أمورنا ما يدله على ان البذور التي زرعها في العالم الجديد نبتت أو كادت تنبت في العالم القديم ، ولاسيا في الشرق حيث المظالم على أتم مظاهرها .

وبعد أن انهى هذه الرسالة دخل المنزل وسلمها الى المرضعة لكي تسلمها لسيدتها متى عادت لترسلها الى المستر كراين في بيروت بواسطة المستر آلن قنصل الولايات المتحدة في دمشق .

وفي أثناء خروجه مع الشرطي شاهد نجليه عائدين من المدرسة فودعهما وداعاً حاراً وأخبرهما انه سيعود قريبا ، فلم يتمالكا من

ذرف الدموع وحاولا اللحاق به .

وفي مساء هذا اليوم تم القبض على حسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر ومنير أفندي شيخ الارض .

وقد اشتد هياج الشعب على أثر هـــذه الاعتقالات وساد الاضطراب المدينة احتجاجاً على الاعتداء على الحرية الشخصية . وفي ٧ نيسان قامت مظـــاهرات عنيفة في دمشق ثم توالت الاضطرابات والاجتماعات وفي ٩ منه قام الشعب بمظاهرات أخرى هتف فيها للحرية والاستقلال فأرسلت السلطة العسكرية قوات مسلحة تعززها الدبابات والسيارات المدرعة لتفريق الجماهير وبلغ عدد المعتقلين في ذلك اليوم خمسين شخصاً . وعلى أثر ذلك أعلنت الاحكام العرفية فازداد الاضطراب في العـاصمة الاموية وسائر المدن السورية وأقفلت الاسواق التجارية والمدارس.

وفي صباح ١٠ منه اضرب جميع أهـــالي دمشق عن العمل وتجمهروا استعداداً للتظاهر وطلب الاستقلال ؛ وبينما هم كذلك واذا بقوة مؤلفة من ست سيارات مصفحة وثلاث دبابات و٢٠٠ جندي فرنساوي و٢٠٠ شرطي و٢٠٠در كي يهجمون على الاهالي ويفرقون الجموع باطلاق النيران .

وقرب ظهر هذا اليوم جرت مظاهرة صغيرة في سوق الحميدية، وعند الساعة الرابعة مساء خرجت مظاهرات السيدات ، وفيها فضليات دمشق يهتفن للاستقلال التام وينادين بسقوط الانتداب وحياة الزعماء الأحرار؛ولما وصلن الى ساحة الشهداء حاول رجال الشرطة تفريق المظاهرة ، فلم يفوزوا بطائل فتابعن سيرهن حتى

تجولن في جميع انحاء المدينة .

ثم توالت المظاهرات الكبرى كل يوم فكانت السلطة تقابلها بجيوشها ونيرانها . وقد قتل في مظاهرة ١١ نيسان التي قام بها الطلاب قتيلان وجرح ستة شبان . وكانت معركة حامية بين المتظاهرين - وسلاحهم الايدي والعصي والجند - وسلاحهم الاسلحة الجهنمية

وعلى أثر ذلك نزلت الى المدينة قوة مؤلفة من ١٢٠٠ جندي واحتلت المدينة من جميع اطرافها ، وأعلن وضع المدينة تحت الاحكام العرفية وأصدرت السلطة البلاغ الآتي :

وفقاً للقرار بوضع دمشق تحت الادارة العرفية يشعر الكولونيل غودني قائد جيوش دولة دمشق الاهلين بما يأتي :

١ - يمنع التجمع في الطريق العامـة ويقمع ذلك بالسلاح .

٢ - يمنع التجول في شوارع المدينة من الساعة السابعة مساء حتى السادسة صباحاً .

٣ - يطلب من الاهلين ان يعودوا لاعمالهم كالعادة .

٤ - كل من يخالف هذه التعليمات يحال الى الديوان العرفي حالا .

وقد استمرت حالة الشعب في هياج والاضطراب آخذاً مأخذه والمدن السورية مضربة عن العمل والمدارس مقفلة والمظاهرات تشب كل يوم حتى ارتاعت لها السلطة وأوجست خيفة من وخامة العقبى فعمدت الى محاكمة الاحرار المعتقلين .

وفي الساعة الواحدة من ليل الثلاثاء ١٨ نيسان نقل المعتقلون وهم : الشهبندر والسادة حسن الحكيم وسعيد حيدر ومنير شيخ

الارض والدكتور خالد الخطيب وعبد الوهاب العفيفي وتوفيق حلبي من محل سجنهم في قلعة دمشق بحراسة ثلة من الدرك الافرنسي الى محل نظارة البوليس في الدور الاسفل من بناية العابد التي يقيم الديوان العرفي الافرنسي في الدور الاوسط منها ، ولبثوا فيها حتى الساعة السابعة والنصف صباحاً . ثم جيء بهم من سلم داخلي في البناية الى صالون المحاكمة لكي لا يراهم الناس .

وكانت السلطة قد حشدت قوة كبيرة من الجند حول مكان المحاكمة سلحتها بالرشاشات ، واحتلت ممرات الطرق المؤدية الى مكان المحاكمة ، وحصرت المرور بطريق واحدة ، وأوقفت عدة من السيارات المدرعة في الطرقات القريبة وامام المحكمة وسيرت دوريات عديدة من الخيالة الافرنسية في المدينة كلها .

وقد ازدحم الناس في باحة المحكمة وفي خارجها وكان البوليس الافرنسي يفتش كل داخل اليها ، وقدر عدد الذين شهدوا المحاكمة بخمسمائة شخص وقفوا داخلاً وخارجاً .

ووقف جمهور كبير في القهوات والأماكن القريبة من دار المحاكمة بسبب ضيق مكانها انتظاراً للنتيجة ، وأقفلت المدينة برمتها في ذاك النهار .

وكانت هيئة الديوان العسكري الفرنسي مؤلفة من : ليوتنان كولونيل الاريث (رئيساً) والكومندان جانيس ، الكبتن غوري ، وليوتنان بيرساي (أعضاء) وليوتنان ليفيك (سكرتيرا) .

وتألفت هيئة الدفاع من الاستاذ جلال زهدي بك (وزير العدلية سابقاً) والاستاذ فارس بك الخوري (رئيس نقابة المحامين

ووزير مالية سورية سابقاً) والاستاذ سعيد بك محاسن ، والاستاذ الياس بك نمور .

والملازمون (سوليويتنان) جيمس وشفاليه والبين وهؤلاء انتدبهم الديوان العرفي للدفاع عن المعتقلين عملاً بأحكام القانون العسكري الافرنسي .

وفي الساعة الثامنة صباحاً ابتدأت المحاكمة بتلاوة مضبطة الاتهام الموضوعة من قبل الهيئة التحقيقية ومآلها اتهام المعتقلين :

١ - بمؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة مشفوعة بالعمل أو محاولة العمل لاعداد التنفيذ .

٢ - بالتحريض على مؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة مع حرج الحالةلان المؤامرة اعقبهاالعمل او المباشرةبه لاعداد التنفيذ .

وهذه الأفعال تنطبق على المواد ١٧ و ٨٧ و ٨٩ من قانون الجزاء الفرنسوي وعلى المادتين ٢٤ و ٢٥ من قانون المطبوعات الفرنسوي المؤرخ في ٢٩ تموز ١٨٨١ وعلى المادة ٢٦٧ من قانون الجزاء العسكري الفرنسوي ، وعلى المادة ٨ من قانون ٩ آب ١٨٤٩ الفرنسوي المعدل بقانون ٢٧ نيسان ١٩١٦ الفرنسوي بشأن الادارة العرفية .

الشهبندر امام المحكمة العسكرية

●

وفيما يلي نص محاكمة الفقيد نقلاً عن نشرات اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني :

الرئيس : لقد تلقيت من الجامعة الاميركية في بيروت نبأ يشعر بوصول (كراين) الى دمشق ، فأعددت معدات استقباله ، وهيأت للاجتماع فريقا من اشتهر عنهم الاستياء من الحالة الحاضرة وسهلت اتصالهم به ؛ فعقدتم ثلاثة اجتماعات في ٢ و ٤ و ٥ ابريل (نيسان) ؛ فهل قمتم بعدها بالمظاهرات ؟

الدكتور شهبندر - تلقيت في اول نيسان نبأ من المستر نيكولي وكيل رئيس الجامعة الاميركية في بيروت ، يشعر بوصول المستر كراين الى دمشق ، ولم يكن هذا الأمر مجهولاً فقد اذاعته صحف مصر وفلسطين من قبل ، وبما انني احد خريجي تلك الجامعة وصديق للمستر نيكولي اجله واحترمه ، وصديق المستر كراين ايضاً منذ عام ١٩١٩ عندما جاء سورية على رأس اللجنة الأميركية الاستفتائية رأيت انه يجب عليّ ان اقوم بكل ما يمكن من احترامه ما دام مقيما بيننا .

الرئيس - أنا لا ألومك على استقبال المستر كراين أو إكرامك اياه ولكنني أؤاخذك على ما دبرته من الاجتماعات والمظاهرات التي افضت الى حدوث جرائم.

الدكتور - انا لست مسؤولاً عن اي اجتماع أو مظاهرة لأنني كنت أصحب المستر كراين لأقوم بترجمة ما يطرح عليه من الأسئلة وما يجيب هو به.

الرئيس - ألم تعقدوا اجتماعاً في بستان الحيات بالصالحية في ٢ حزيران ؟

الدكتور - نعم اجتمعنا.

الرئيس - وجميع الذين حضروا ذلك الاجتماع ألم يكونوا من المعروفين بالموالاة للحكومة الشريفية وبالكره للحكومة الفرنساوية ؟

الدكتور كلا بل كان هناك فريق من أعز أصدقاء السلطة.

الرئيس - سواء كانوا من أصدقاء فرنسة أو أعدائها فقد جاؤوا بدعوة منك.

الدكتور - لم أدع أحداً

الرئيس - لقد ألقيت خطاباً في ذلك الاجتماع.

الدكتور - كذب. من أبلغكم، فأنا لم أخطب مطلقاً، بل كنت أنقل كلام الحضور الى المستر كراين وكلامه اليهم. أنا لا أكذب فما قلته هو الصدق. أما ما نقل اليكم فهو محض افتراء.

الرئيس - لدي صورة من خطابك الذي قلت فيه: ان العرب بذلوا جهدهم في الوصول الى استقلالهم فكان جزاء عملهم حرمانهم

من الاستقلال ، وبمكافأتهم بالذل والعبودية . وقد حاولت مخادعة الجمهور بادعائك أن المستر كراين مندوب من قبل عصبة الامم .

الدكتور - لقد سبق وقلت لك : انني لم أخطب في ذلك الاجتماع ، وقلت عن المستر كراين انه المندوب السابق لجمعية الامم لا في الحاضر .

الرئيس - اذن لم تدع أحداً للاجتماع .

الدكتور - احب أن تدعو لي من يشهد بأنني دعوته للاجتماع . لقد كنت أصحب المستر كراين كترجمان فقط .

الرئيس - كان الاجتماع اذن بطريق المصادفة ؟

الدكتور - طلب كثيرون من المستر كراين أن يلبي دعوتهم .

الرئيس - من هم ؟

الدكتور - لست جاسوساً لأذيع خفايا الناس واسرارهم .

الرئيس - يوجد رجل دبر واياك هذا الاجتماع .

الدكتور - ومن هو ذلك الرجل ؟.

الرئيس - حسن الحكيم .

الدكتور - وهل تريدون ان اسأله ؟

الرئيس - في ذلك الاجتماع كنت انت وسعيد حيدر تستقبلان الجموع .

الدكتور - انا لم أكن مستقبلاً للناس بل كنت ترجماناً للمستر كراين ليس الا .

الرئيس - لقد القيت خطاباً في ذلك الحين .

الدكتور - اعود فأؤكد لكم انني لم ألق خطاباً لا في ذلك

الاجتماع ولا في سواه .

الرئيس – كنت تظهر رغائب الحضور وأمانيهم وقد قلت بوجوب اسقاط الحكومة، واستبدال رجالها والمناداة باستقلال البلاد .

الدكتور – هذا زعم جناة كاذبين ، وانا لم أقل شيئاً من ذلك

الرئيس – اذن ما الذي كنت تنقله من كلام الاهلين الى المستر كراين .

الدكتور – لقد كان اكثر ما ترجمته مقتصراً على الحالة الاقتصادية . فقد قال احد الحاضرين : ان والده كان يدفع ٣٠٠ غرشاً سنوياً في زمن الحكم التركي ، وقد بقي في هذه البلاد ثلاثين سنة تاجراً ولم يتجاوز ما يدفعه من التمتع ذلك المبلغ المذكور أما اليوم فيأخذون منه ١٧،٠٠٠ غرشاً سنوياً . وقال غيره : انه كان يدفع أيام الحكومة الماضية ١٥٠ غرشاً فأصبح اليوم ١٣٦٠ غرشاً .

الرئيس – كان ذلك في ايام تركيا أم في ايام غيرها .

الدكتور – كان في أيام تركيا والحكومة الوطنية .

الرئيس – قد قلت في خطابك ان التقرير الذي طلبتم فيه انتداب أميركا قد ضاع وان الانتداب الفرنسوي غير رسمي .

الدكتور – لقد كنت أترجم كلام المستر كراين الذي قال : ان التقارير التي جمعناها من سورية والتي عرفنا منها رغبة السوريين في الاستقلال التام قد ألقيت في زوايا الاهمال في وزارة الخارجية الاميركية ، وقد جئنا الى سورية في الماضي رسلا امناء

وكان هذا جواباً من المستر كراين على سؤال وجه اليـــه عن نتيجة تقرير اللجنة الاميركية .

الرئيس - ثم حدث اجتماع آخر ؟

الدكتور - اين ومتى ؟

الرئيس - في بستان عبد الرحمن الكزبري في ٥ نيسان .

الدكتور - نعم ولكنني لا اذكر التاريخ .

الرئيس - وكان الاجتماع لامضاء مضابط ، وكنت انت الداعي اليه .

الدكتور - أرد هذا الكلام رداً باتاً .

الرئيس - وعندما خرجت من الاجتماع سألت جمهوراً من الشبان هل أنتم ثابتون على افكاركم ؟ وحرضتهم على المنـــاداة بالاستقلال ، والمجاهرة بعداوة الانتداب .

الدكتور - لا اذكر شيئاً من ذلك واني لا ابرح ارفض كل انتداب فرنسوياً كان أو انجليزياً أو أميركياً .

الرئيس - قلت ليحي الاستقلال وليحي كراين وولسون والشعوب الحرة .

الدكتور - قلت ذلك ، وقاله الكل ، ولكل انسان الحق **في ان يقول ذلك ويحيي الاستقلال والحرية .**

الرئيس - في ٦ نيسان (ابريل) جئت فندق داماسكوس والقيت امام المستر كراين خطابا أجابك عليه بمثله .

الدكتور - جئت الفندق لأودع المستر كراين فوجدته في غرفته ثم نزلنا معا فرأينا جمعاً من الناس جاؤوا لتوديع الضيف

فدعاني المستر كراين للذهاب معه ومخاطبة جمهور المودعين .

الرئيس – وهل كانت الأشخاص الذين أتوا أمام الفندق ؟

الدكتور – لقد تكلمت امامهم بما لا يخرج عن حد المجاملة .

الرئيس – أكنت راكباً أم ماشياً ؟

الدكتور – مشيت أولاً ثم ركبت مع المستر كراين لأكون مترجماً له .

الرئيس – ماذا كنتم تقولون ؟

الدكتور – كنا ساعة التوديع في حالة انفعال نفسي فكنا نصيح ليحي الاستقلال لتحي الحرية ، مظهرين في هذا الهتاف اعجابا بهذا الشخص المحبوب الذي جاء سورية لانتخاب فتاتين تتعلمان على حسابه في أمريكا وهما الآنستان نازك العابد وأليس قندلفت .

الرئيس – هل كان انفعالكم هذا نتيجة اجتماع أربعة أمام ؟

الدكتور – كلا فان الدموع التي كانت تجري من أعين الناس كانت بنت ساعتها وقد سببها شعور الألم الذي يشعر به كل سكان هذه البلاد .

الرئيس – كنتم تصرخون ليسقط الخونة ، وليسقط الظالمون ، ولتسقط الحكومة ، ولنمت في سبيل بلادنا .

الدكتور – لم ينطق أحد منا بغير كلمة ليحي الاستقلال ولتحي الحرية .

الرئيس – انك قلت أمام دائرة الشرطة (البوليس) : ان فرنسا بعفوها عن المجرمين السياسيين تشجعنا على طلب الاستقلال .

الدكتور - لم أقل شيئاً من ذلك .

الرئيس - قلت امام فندق فكتوريا لتحي شجرة الاستقلال النامية .

الدكتور - كنت اتكلم باللغة الانكليزية وقلت ذلك .

الرئيس - هتفت عند سفر السيارة قائلاً مع السلامة الى الملتقى يا حضرة المندوب وفي تلك الاثناء حملك الشعب على الأكتاف .

الدكتور - هل تكره يا حضرة الرئيس ان أكون محمولاً على اكتاف الشعب .

الرئيس - كلا .

الدكتور - ان الشهبندر قضى عشرين سنة في خدمة استقلال وطنه ونصرة قوميته ، فرجل مثل هذا ألا يحق له ان يحبه الشعب ويحمله على الاكتاف .

الرئيس - انك تحاول بمناسبة عفو فرنسا عن المجرمين السياسيين أن تتظاهر بالتودد لها ومحبتك اياها .

الدكتور - كلا انا لا أحب فرنسا ولا أتودد لها . وعندي ان انكلترا وأمريكا وفرنسا شعوب واحدة لا فرق بينها .

الرئيس - في اليوم الذي أوقفتك فيه الشرطة وجد معك حوالة بألف دولار بامضاء المستر كراين .

الدكتور - ان تلك الحوالة تسبب لي فخراً .

الرئيس - ما هو الغرض من تلك الحوالة ؟

الدكتور - ان في نية المستر كراين تعليم فتاتين الوحدة

مسلمة والثانية مسيحية على نفقته في مدارس أميركا أسوة بخالدة أديب الشاعرة التركية التي تعلمت على حسابه .

« وهنا قام المحامي الياس بك نور وأراد ان يتكلم » فقال الدكتور شهبندر دعني ادافع عن نفسي وأنفي التهمة التي لحقت بي واكشف للمحكمة امر الحوالة .

الرئيس - لا يهمني امر الحوالة ما دامت لم تدفع وانا اؤمن بكلامك ، ولكن بعد ايقافك ظهرت في المدينة مظاهرة .

الدكتور - لا أعرف شيئاً مما حدث اذ كنت في سجني .

الرئيس - ان المظاهرات حدثت عن أوامر صدرت من السجن والادلة متوفرة .

الدكتور - اروني تلك الأوامر !

الرئيس - يقرأ صورة الاوامر وهي : « اقفلوا المدينة حتى موعد المحاكمة » انك لم تكتب هذا المنشور ولكنـــه خرج من السجن ، ورجال الدرك السوري هم الذين اذاعوه وبلغوه .

الدكتور - لا علم لي بشيء من هذا ولا نصيب له من الصحة .

الرئيس - لقد تبين لنا ان المظاهرة التي حدثت في ١٠ و ١١ نيسان (ابريل) كانت من الأشخاص الذين أطلق سراحهم ، وكانوا يتلقون أوامرهم منك في أثناء اعتقالهم .

الدكتور - لم أعط أمراً لا في السجن ولا في غيره

الرئيس - في ٩ ابريل (نيسان) ألقيت في السجن خطـــاباً صرحت به للمسجونين بكل ما تداولتم به في الاجتماعات الماضية . وقلت : ان الولايات المتحدة مهتمة بأمر سورية ثم حلفت المعتقلين

على القرآن .

الدكتور - كنت أقص على الرفاق حوادث سفري يوم فررت من مظالم جمال باشا الى العراق والهند ومصر .

الرئيس - ألك ما تقوله بعد ؟

الدكتور - انني أشكو من المعاملة التي عوملنا بها ، والسجن الذي وضعنا فيه فانه لا شمس فيه ولا هواء ، وقد منعنا من الخروج لاستنشاق الهواء النقي .

الرئيس - ولكن هذا السجن لم تبنه الحكومة الفرنسوية بل هو موجود من قبل وقد كان في زمن الحكومة الفيصلية .

الدكتور - كان يمكن للحكومة أن تضعنا في منزل أو بناية أخرى غيره .

وهنا ختم الرئيس أسئلته التي كان يجيب عليها الدكتور الزعيم برباطة جأش وجرأة .

ثم وجه أسئلته الى بقية المتهمين وأخذ يستجوبهم واحداً واحداً .

وبعد أن انتهى الرئيس من سماع أقوال جميع المعتقلين السبعة طلب اليهم أن يقول كل واحد منهم ما يشاء فأعرب الجميع عن شكواهم من المعاملة التي يعاملون بها في السجن الذي لا تدخله الشمس ولا ينفذ اليه الهواء ، ولكن المحكمة لم تعر هذه الشكوى أقل اهتمام .

وبعد أن توقفت الجلسة خمس دقائق بدأت المحكمة بسماع الدفاع فاعترض المحامون على صلاحية المحكمة في رؤية هذه الدعوى التي تتعلق بالحكومة السورية .

ولكن المحكمة قررت رد هذا الاعتراض والدوام على سماع الدعوى ثم دعت شهود الاثبات وهم من رجال الشرطة والموظفين في البوليس السري فسمعت أقوالهم ثم دعى شهود الدفاع وكانوا ١٥٠ شاهداً وفي مقدمتهم السادة : حسام الدين العمري ، وعثمان الشرباتي ، ورشيد الرافعي ولكن الرئيس أعلن الاكتفاء بهؤلاء الثلاثة وقال: لو جئتنا بكل سكان دمشق لشهدوا ببراءة المعتقلين فلا لزوم للتطويل . ثم تلا المدعي العام الفرنسوي تقريره المطول وقد حمل فيه حملة شعواء على المتهمين ، وأعقبه محامو الدفاع فألقوا دفاعهم المجيد .

الحكم على المتهمين

وفي الساعة الثانية بعد الظهر دعا رئيس المحكمة العسكرية المحامين وأبلغهم أن الديوان العرفي قرر الحكم على المتهمين بالأحكام الآتية :

الدكتور شهبندر	–	بالسجن عشرين سنة (بأكثرية الأصوات)
حسن الحكيم	–	» عشر سنوات » »
سعيد حيدر	–	» خمس عشرة سنة باتفاق »
منير شيخ الأرض	–	» عشر سنوات » »
عبد الوهاب العفيفي	–	» عشرين سنة » »
الدكتور خالد الخطيب	–	» عشر سنوات باتفاق »
توفيق الحلبي	–	» خمس » بأكثرية »

وذلك وفقاً للمواد ٤٧ و ٨٩ و ٩١ من قانون الجزاء

الافرنسي بدعوى محاولتهم قلب الحكومة .

ولم تجر تـلاوة قرار الحكم علناً وتبليغه وجـاهاً للمتهمين كما يقضي بذلك قانون أصول المحاكمات بل اكتفي بتبليغه للمحـامين وصدر الأمر للبوليس بأن يفرق الشعب المجتمع .

وفي منتصف ليل ٢٠ (نيسـان) أعيدوا الى محـل سجنهم في القلعة بحراسة الجند الافرنـسي .

وفي منتصف ليـل ٢١ منه أركبوا ثلاث سيارات وسـاروا بخفرهم الجند الى بتدين أي مدينة (بيت الدين) في لبنان .

وفي صباح الجمعة ٢٢ منه أقفلت مدينة دمشق احتجاجاً عـلى هذا الحكم وقامت الاضطرابات في جميـع انحاء البلاد كما سيأتي .

وبعد ذلك نقل الأحرار المعتقلون إلى جزيرة ارواد ليقضوا في سجنها المظلم مدة أحكامهم .

الثورة السورية الوطنية (١)

مذكرات الزعيم الجليل الدكتور شهبندر

(١) لقد اختص الزعيم الخالد اثناء وجوده بمصر عام ١٩٢٨ ناشر هـــذا الكتاب بهذه المذكرات القيمة وسمح له بنشرها.

من الخطأ الفادح أن يتصور الانسان ان الثورة تكون عادة بنت ساعتها ووليدة قائدها تنفجر من فم بندقيته كما انفجر الماء من شق الحجر لما ضربه موسى بعصاه . فعلى من يريد تدوين تاريخ الثورات أن يرجع الى أسبابها وهذه كثيراً ما تكون بعيدة او قريبـــة .

الأسباب البعيدة

بقيت سورية جزأ من المملكة العثمانية من الوجهة الاجتماعية حتى أواخر سنة ١٩١٠ كما يبقى الطفل جزأ من الكائنات الى أن يدب فيه الوعي الفردي ، فلم يخطر ببالها طيلة قرون متوالية انها وحدة منفصلة ذات قومية خاصة وكيان اجتماعي معين وذلك لأن أجداد السلطان عبد الحميد الثـــاني كانوا مثله متمنطقين بسيف الاسلام القاهر ومكتسين بكسوة اللاقومية الانسانية الجذابة .

فلما وضع الاتحاديون قسمهم المعلوم وأكدوا فيه أن لا يفرقوا بين الطوائف والعناصر في المملكة العثمانية صادف كلامهم

قبولاً عند العرب عموماً والسوريين منهم خصوصاً وحملهم على حسن الظن باحفاد طوران . ولكن سرعان ما تبين لهم - الا من عميت بصيرته منهم أو خفيت عليه بواطن الامور - ان هذا القسم تحول في أدمغة زعمائهم أمثال ناظم وجمال وطلعة الى رمز التفوق الطوراني لان الذي عصب عيون الترك في سالونيك والاستانة عندما حلفهم على السيف والمصحف توهم أن له بسبب ذلك حق التوفيق والسيادة .

وقد حصلت بنفسي في حوالي ١٩١٠ على ملاحظتين قيمتين لا ريب فيهما كانتا سبباً من الأسباب الكبرى التي نبهتني كما نبهت اخواني الى سوء الظن (أولهما) أن المرحوم كامل بك الصلح قال لي : « لما كنت في طريقي من مناستر الى دمشق لأتسلم رياسة الاستئناف في محكمتهـــا مررت على الاستانة باشارة من وزير عدليتهـــا نجم الدين منلا بك فقال لي بصورة الايقاظ والتنبيه (يجب ان تكون المرافعات في محكمتك من الآن فصاعداً بالتركية لاننا سنترك العرب) (عربلري تركاشديرة جغز) » ..

والثانية – اننا في اللجنة المركزية للاتحاد والترقي في سورية تلقينا تبليغاً شفهياً من المركز العمومي بواسطة الدكتور محرم بك يقتضي جعل اللغة التركية لغة مخابراتنا فكان هـذا ما يراد لها من التفوق في الشؤون حتى في الجمعيات الوطنية في البلاد العربية .

هاتان الحادثتان او الملاحظتان وما سبقهما ولحقهما من أعمال السلطة العنصرية - جنكيزم - تدل على تطور جدي في أدمغة الترك كما تدل على ابتداء الشعور الذي سيدب في المناطق العربية

حتماً ولا سيما حيث ازدهرت العلوم وارتفع المستوى التهذيبي . وذلك لأن رد الفعل في الموجودات الحية الشاعرة يكون على قدر الفعل الذي يصيبها اجمالاً .

على هذا النمط ابتدأ الشعور القومي يتسرب الى قلوب العرب، والسوريون في مقدمتهم وما زال على تزايد رغم أنف المخدوعين منهم أو أرباب المصالح الذاتية حتى كتب لهم في أوائل الحرب العالميـــة أن يكون منهم شهداء يذهبون الى المشانق في سبيل القومية والحرية .

احتلت فرنسا سورية فلم تحفل بهذا الشعور الحي النامي بل عدت أعمال العصابات في جبال الكابية وعلى حدود «لبنان الكبير» والحرب في ميسلون والتظاهرات في دمشق بل تقرير اللجنـــة الأميركية الاستفتائية برئاسة المستر تشارلس كراين والدكتور كنج ضرباً من ضروب الدسائس الانكليزية والدعاية التي أثارها الفيصليون وما فتئت متعلقة بزوايا التقارير التي رفعها اليهـــا الجواسيس مهملة ما يقع تحت سمعها وبصرها حتى استفحل الأمر وامتلأت القلوب فلم يعد في قوس الصبر منزع .

العامل الاقتصادي

ان كل خلاصة موجزة لمثل تاريخ هـذه الثورة لا تلتفت الى العامل الاقتصادي تكون ضرباً من الأقاصيص والأوهـــام فتراجع سورية في عهدها الجديد الى الوراء في منتوجاتها ومحصولها وصادرها ووارداها وقيمة نقدها ودولاب صناعتها بل في عـدد

سكانها لكثرة الهجرة وقلة المواليد كل ذلك كان له الشأن الاساسي في تزايد النفرة من الحكومة المسؤولة ودس صفائح الديناميت تحت اركان هيكلها . ولكن لا يغرب عن البال ان العامل الاقتصادي مهما علت مكانته في الشؤون الاجتماعيـــة ليس الا نقطة الاستناد في التطورات الذهنية الكمالية - فالمال وما اليه من اسباب الرفاه العادي هي الاقبية الدنيا وأمـــا الصرح الشاهق فالكفايات النفسية التي تطلبها الأقوام الحية الشاعرة . ان الضائقة الاقتصادية في اوسع معانيها نبهت في الشعب المشـــاعر الكمالية وفي مقدمتهـــا الشغف بالحرية ، وكان حصر الوظائف الرفيعة في ابناء الترك وحرمان ابناء العرب منها على عهد الحكومة العثمانية ناءت الفعل لهذا المعنى مثل زيادة الوارد على الصادر اضعافا مثنة في عصر الجمهورية الفرنسية ، ان هذا جميعا ادّى الى الاستياء والاستياء هو الحلقة الاولى في سلسلة التطورات العقلية .

فوزي بك القاوقجي

وقد رأيت ان أتوسع في هذا البحث قليلاً وافصل ما جملت فسألت الاخ فوزي بك القاوقجي ان يتحفني بالاسباب التي حملته على الانضمام الى الثورة مع انه قد عرف بولائه للفرنسويين ونال في جيشهم رتبة عالية قلما ينالها غيره من الوطنيين فقال وقوله له قيمة منطقية خاصة لانه صادر عن بيئة خاصة :

بارحت دمشق عقيب الاحتلال الفرنسوي لأتسلم وظيفتي الجديدة في حماة وهي قيادة الجيش الوطني - المليس - فوجدت

اعمال الظلم والارهاق سائدة في تلك الارجاء واول مشهد رأيته هو ان جميع وجهاء المدينة وعلمائها ألقوا في غياهب السجن مع اشنع انواع السجن لتأخرهم عن تنفيذ اوامر الكابتن (ميك) المستشار الاداري . وثاني مشهد هو ان رجال الشرطة ساقوا امام عيني جميع رجال محلة (الحاضر) كبارا وصغارا في الاسواق تحت السياط الى دار الحكومة لان احد الاولاد فلتت من يده سلسلة مفتاح فأصابت كلب مدام (ميك) اثناء مرورهـا في الطريق . والمشهد الثالث هو أن جميع اهالي محلة الباشورة نساء ورجالا واطفالا سيقوا الى السجن لمجرد طلقة نارية سمعها (ميك) في جهاتهم . والمشهد الرابع وهو ما لم يذكره فوزي بك هو ان احد كبار الأعيان المعروفين أوى الى اصطبله امرأة فقيرة مع زوجها كانا يغطيان جسدهما بقطعة من قماش خيمـة من بقايا الجيش البريطاني . فدعى الكبتن (ميك) هذا الوجيه اليه بتهمة اشتراكه في سرقة متاع الجيش فألقاه على ظهره ثم انهال على رجله بالسياط حتى نثر عظم مشط قدمه عن اللحم حينئذ توافع جميع الحاضرين على الكبتن (ميك)يطلبون لهذا المسكين شفاعة فتنازل بعد اللتيا والتي وقبل طلبهم .

قال فوزي بك : أثرت فيّ هذه المناظر كثـيراً وجعلتني اعتقد ان العمل مع الفرنسويين في بلادنا بعيـد الامكان وان الاصلاح والارشاد المأمول من السلطة المنتدبة حلم من الاحلام وان الشعب لا بد وان يثور على اعمال العسف والاهانة مفضلاً الموت بقذائف المدافع ورصاص البنادق على تمزيق جلده بسياط

الدرك الفرنسي وتحطيم رأسه تحت أقدام المستعمرين ..

ثم اخذت اتودد الى الفرنسويين وأتقرب منهم حتى صرت موضع الثقة التامة من جميع القواد فدخلت الجيش برتبة كابتن فرنسوي وعينت معاونا للمستشار الاداري في حماه كل ذلك لخدمة بلادي في المستقبل. وقد افادتني هذه الوظيفة الجديدة فائدة عظمى اذ مكنتني من التدخل في جميل الشؤون الادارية والوقوف على دقائق البرامج الاستعمارية والنيات السيئة للبلاد من ابتزاز الاموال واستعباد الشعب بصورة تدريجية. فمن الاعمال المذكورة التي تنفذت :

(١) تقسيم البلاد الى حكومات واستخـــدام الاسافل في الوظائف ممن ليس لهم الاهلية واللياقة لتنفذ السلطة بواسطتهم مشيئتها ونبذ الوطنيين بحيث اصبحوا غير آمنين ولو في منازلهم وفصل ادارة العربان عن الحكومة المحلية وربطها مبـــاشرة بالمستشاريات الادارية وجبي الضرائب على المواشي والابل من هذه العشائر للخزائن الفرنسوية وتسليط العشائر القوية على الضعيفة حتى انهكوا قوى الجميع المادية والمعنوية. ثم ان الرشوة التي يسميها ضباطهم « بخشيشا » بلغت درجة لا تطاق فتجاوزت الضباط الى نسائهم فمستخدمي دوائر المستشارية - خصوصا التراجمة - فهؤلاء أصبحوا يسجنون ويسرحون من شاؤا بواسطة الدرك المحلي من غير أن يروا ضرورة لاعلام المستشارين ذلك لأن السلطة التي تمتعوا بها واسعة ونافذة .

(٢) لمـــا قتل مصطفى بك العظم أحد وجهاء حماه أوعزت

السلطة الى أسرته بان تطلب تأليف حملة اهلية من الفلاحين والبدو لغزو الذين قتلوه وهم من رجال الزاوية فأجازت لهم ذلك وأعطت حملتهم السلاح والعتاد الكافي لمقاتلة أهالى جبـــل الزاوية باسم ثار مصطفى بك وفي الواقع تحقيقاً لما تقوله في نفسها « الكلاب على البقر » .

(٣) ان الجيش المسمى (لجيون سيرين) أو الجوقة السورية هو مؤلف من أرذل الطبقات يتحرك بأمر المستشارين وله الحق وقت تنقله وحركاته في نهب الأماكن التي يمر عليها وجلب اعاشتها منها بالقوة ومن غير ثمن . ولو كانت هـذه الحركات عبارة عن مناورة على أن جميع مصاريف هذا الجيش من رواتب ولوازم وحاجات مكفولة من الميزانية السورية .

(٤) لقد قضوا على الزراعة بعجزهم عن تأمين الامن وانقالهم كاهل الفلاح بالغرامات والضرائب ووضعوا يدهم على أمـــلاك السلطان عبد الحميد ثم سلموها لأيد ملتمسة غير عاملة مما جعل حمص وحماه وحوران وهي أهراء سورية المشهورة في حاجة الى الحصول على معونتها من الخارج

ويذلك المقـال الآتي على ما اريد بيانه فقضـاء (الحمراء) المربوط بلواء حماه بينما كان مؤلفاً على عهد الترك من مائة وثمان قرى عامرة أصبح في سنة ١٩٢٤ مؤلفاً من خمس قرى فقط ولولا واردات أوستراليا وأميركا ومصر والهند لماتت أهالي هذه البلاد الخصبة جوعاً . وقد أثرت هذه النكبة الزراعية في الصناعة الوطنية كل التأثير فتعطل أكثر من ثلاثة أرباع المصانع الوطنية في حمص

وحماه وحلب .

ففي حمص مثلاً كان يوجد ثلاثة آلاف معمـــل او نول المنسوجات الوطنية في عهـــد الترك فأصبحت في سنة ١٩٢٥ خمسمائة .

وقد تمكنوا اخيراً من تنفيذ برنامجهم المتعلق بقاعـدة « فرق تسد » وذلك بزرع بذور الشقاق بين الطوائف والملل المختلفة في سورية فحركوا المسيحيين على المسلمين وفرقوا الاسماعيليـــة والعلويين والشيعة والجركس والكرد عن اهل السنة وحملوا كل طائفة منهم على طلب الانفصال عن الأخرى ومزقوا البـــلاد وخلقوا من الشعب السوري العربي شعوباً كثيرة متنافرة .

ثم اخذ في الختام يشرح مضـــار المصرف السوري ومقادير الذهب التي اخرجها من البلاد بما هو معروف فلا حاجة الى اعادته.

وما ذكرت هذه الخلاصة في الأسباب الا لتكون شهادة من موظف كبير خدم في الجيش الافرنسي حينا من الزمن ورأى الامور عن كثب. ولو اردنا ان نضيف اليها اعمال السفاحين الاخرى كالقومندان أرلابوس من الضباط السابقين مثلاً لضاق بنا المقام .

ثورتان أخريان سابقتان

ولا بد لمن أراد الالمام بالعوامل البعيدة التي ادت الى هـذه الثورة من الاطلاع على خبر التظاهرات الخطيرة التي حدثت في سورية سنة ١٩٢٢ والتي قتل وسجن فيها وعذب ونفي في سبيلها مئات من الرجال فقد كانت هذه التظاهرات تمريناً عمليـــا على

ثورة مدنية انعشت القلوب واعادت اليها ثقتها بنفسها بعد ما استولى عليها وهم العظمة العسكرية الاستعمارية . ان هـــذه الثورة الصغيرة كانت على التأكيد فاتحة عصر عملي جديد في تاريخ الوطنية الحديثة في سورية .

ويلحق بذلك تظاهرات سفكت فيها الدماء ايضاً وكان حدوثها في دمشق في اوائل سنة ١٩٢٥ يوم زارها اللورد بلفور مؤسس الوطن الصهيوني القومي في فلسطين على حساب الأمـة العربية . وكان لتلاميذ المدارس العالية في العاصمة الأموية دور خطير في تنفيذ خططها وترتيباتها . ولم يكن الاحتجاج فيها والحق يقال على اللورد بلفور ووعده فحسب بل كان على الاســتعمار جميعاً في كل زمان ومكان .

ومما هو جدير بالذكر ان المزاج العصبي في بعض الموظفين الفرنسيين وجهلهم الفادح بالادارة وبالشؤون المحلية كان اداة صالحة لنفخ النار وزيادة لهيبها .

الاسباب القريبة

الكابتين كربيه

هذه بالاجمال هي الأسباب البعيدة وأما الأسباب القريبة فقد حدث في جبل الدروز ان الفرنسويين توصلوا بالحيل الاستعمارية المعلومة من القاء بذور الشقاق بين ابناء الطائفة الواحدة الى احلال حاكم عسكري أفرنسي بعد وفاة الأمير سليم الأطرش محل الحاكم الوطني فكان اسم هذا الحاكم الجديد الذي طبقت شهرته الخافقين بفضل نوادره القرقوشية وسيرته الابيكورية « الكابتن كربيه » .

بدأ هذا الرجل حياته في الجبل مستشاراً ثم ارتقى فصار وكيل حاكم فاصيلا على عهد الجنرال فيجان المفوض الاستعماري الاكليركي المشهور. وسار في أول أمره سيرة لين وعطف حتى تمكن من العض فنهش . ومن نوادره الفذة انه كان اذا ذهب الى قرية ولم يخرج لاستقباله أهلها بالخيل والرجل كليهما معا فرض عليهم الغرامات الباهظة وحشاها في جيبه كما فعل في قرية

(عرمان) مثلاً.

ومن ذلك أن هرة الملازم (موريل) ضاعت في السويداء فغرم الاهلين بسببها عشرة جنيهات عثمانية وان مصباحا للبلدية كسر أو سرقه أحد الجواسيس فحل برقاب الأهلين عقابه اذ أرغموا على تأدية عشرة جنيهات أيضاً .

وان ودي بوشله العريف الجندي خاصم محمد عز الدين بك الحلبي مدير العدلية فسدد اليه مسدسه فأطلقه ولكنه أخطأه ، ولم يجاز على جنايته هذه المشهورة ولو بكلمة التعنيف من سيده .

وأنه استاء مرة من فهد بك الأطرش خريج الاستانة وقائم مقام صاخد فضربه بيديه ورجليه وبالسياط على مرأى ومسمع من جميع الناس .

وكان اذا سمع وشاية من الجواسيس على أحد من الأعيان أو شيوخ العقل أرسله حالا الى السجن من غير محاكمة أو استنطاق وشغله بتكسير الحصى لتعبيد الطرقات كما فعل بسليمان بك نصار مثلاً وهو شيخ قرية (ساله) وعين أعيانها وبالشيخ صالح طربيه وهو علم في الفقه والصلاح في الجبل .

ولما نقم على بني الأطرش وحاول سحق نفوذهم وارغام أنوفهم صار يلقي كل من تودد اليهم ولو بالسلام المجرد البسيط في غياهب السجن . وكثيراً ما كان يترك السجين من غير طعام بل على الماء المملح فقط ثلاثة أيام متواليات وبالغ بعضهم فقال لي بقيت أسبوعاً كاملاً على هذا الحال .

ومن نوادره التي (لو كتبت بالابر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر) أن الجواسيس ذكروا له في جملة ما ذكروا ان الدروز اذا تنحنحوا فانما يقصدون من تنحنحهم لعنة من يرون به من غير طائفتهم وشتم دينه . فويل لمن كان مصاباً منهم بالتهاب جيبي في حلقه أو بزكام في حنجرته فان ذلك يعني بقاءه في السجن الى أن تزول أعراض مرضه .

هذه نبذة مختصرة من نوادره في الظلم وحجز الحرية الشخصية أجمع الرواة عليها وبلغت حد التواتر فـاذا اضفنا الى ذلك كله المرض البهيمي الذي بقي معه من سن الصغر والى الهنات السافلة التي لا يسمح الأدب بالاشارة اليها أكثر مما فعلنا أدركنا حالاً علاقته القريبة بهذه الثورة المباركة .

وكثيراً ما كنا نقول في مناطق الثورة ان الاعتراف بالجميل يقضي بوضع صورة الكابتن كاربيه في **مجموعة صور المؤسسين لنهضة سورية لأنه من غير شك كان مـن العوامل العظيمة التي لفتت الانظار الى شر المستعمرين وسرعت الخطى للوصول الى الحرية .**

ابتداء الثورة الوطنية

ضاق (بنو معروف) ذرعاً بحاكمهم وسدت سبل النجاة من أعماله في وجوههم . فأخذوا يفكرون والحاجة تفتح من أذهانهم حتى ادركوا ان لا مناص لهم من الثورة .

ولكن ما العمل والجبل صغير وفرنسه دولة عسكرية كبيرة

وهل تدخل سائر المناطق السورية معهم في هذه الشركة الخطرة يا ترى ..

الوطنيون

كان الوطنيون قد مهدوا السبيل الى الاعمال الكبيرة بالثورات المحلية التي احدثوها كما قدمنا والاضطرابات العامة التي سببوها من اضراب عن العمل واغلاق للحوانيت والمخازن واحتجاجات داخلية وخارجية ومعلومات صحيحة رفعوها الى عصبة الأمم ما نور الأذهان ورفع مستوى الادراك السياسي العام .

وكان الاستياء المستفيض والحق يقال هو المادة الخام التي استخدموها في معاملتهم فاستخرجوا منها خير المعمولات المتينة ذات الطراز الحديث بحيث تمكنوا بواسطتها من انشاء بعض الأحزاب السياسية العظمى في طول البلاد وعرضها واعدادالاراء لقبول التبعات العملية الجديدة . ثم صفوا حطب الابيلة وكوموه بصورة منتظمة ولم يعدموا من يولع فيه النار من ابناء البلاد الأبرار .

فلما أذنت الساعة والتقى الدروز الهائجون في بحار الافكار باخوانهم في دمشق شعروا أنهم بلغوا ساحل السلامة اذ نزلوا بينهم على الرحب والسعة .

عقد أول اجتماع تمهيدي في بيت أحد الاخوان وهو الاستاذ السيد القاسم الهيماني صاحب جريدة الفيحاء في أوائل شهر مايو سنة

١٩٢٥ حضره المرحوم الأمير حمد الأطرش ودار فيه الحديث على اشعال نار الثورة ثم اعقبه اجتماعات أخرى متعددة في منزلي في عرنوص على طريق الصالحية حضرها عدد كبير من الزعماء الدروز كالمرحوم نسيب بك الأطرش وعبد الغفـــار باشا الأطرش ومتعب بك الأطرش وأبي حمد يوسف العيسمي وغيرهم من كبـار الرجال .
فأخذت فيها العهود والمواثيق بصورة سرية وأقسم الحاضرون بأغلظ الايمان على تحقيق الوحدة والاستقلال وقد جرى ذلك كله من غير أن يكون للاحزاب الرسمية أو غير الرسمية أقل اتصال مباشر او غير مباشر . ولم يحن الوقت بعد لتفنيد مزاعم الجنرال سراي وغيره في اتهامهم الابرياء والقائهم في غياهب السجن . لأن تبعة الاشتراك وتوحيـد المساعي تعود على من حضر هــــذه الاجتماعات فقط لا غيرهم . وما تم لم يتم باسم الأحزاب بل باسم الافراد ومن تشبثهم . وقد غادر الزعماء الدروز دمشق الى الجبل وإيمانهم أشد رسوخاً بوجوب الثورة .
وحدث في تلك الأثناء ان الكبتن كاربيه سافر بالاجازه الى فرنسا فحل محله الكبتن رينو بالوكالة ولما آنس في الدروز تلك النفرة الخالصة التي فضتهم من حول كاربيه طمع ان يحول الوكالة الى اصالة فأخذ يدس دساً أصولياً حاذقاً بحيث أجمعت الآراء على انه كان من الافواه المهمة التي نفخت في بوق الثورة .
ارتأى رينو أن يقابل الزعماء الجـــنرال سراي ويطلبوا اليه الخلاص من كاربيه ففعلوا وسافر منهم الى بيروت المرحوم الامير حمد الأطرش والمرحوم نسيب بك وعبد الغفار باشا الاطرش

وأسعد بك مرشد وغيرهم لكن الجنرال رفض هذه المقابلة كما هو معلوم فعادوا من حيث أتوا وهم أشد حنقاً واكثر انتقاماً وكان هذا العمل من أشد العوامل القريبة التي أدت الى الانفجار .

وفي اليوم الاول من عيد الاضحى ٢١ تموز سنة ١٩٢٥ اجتمع فتيان معروف في السويداء باشارة من الاعيان وقاموا بتظاهرات نادوا بها فليسقط كاربيه الظالم وليحي رينو العادل . ثم اخذوا يبحثون عن اعضاء المجلس النيابي ليحملوهم على عزل ذاك واحلال هذا محله فصادفوا فارس بك الاطرش وهو احد الاعضاء وممن لعبوا أشنع الادوار هو واولاده في تأييد المستعمرين على ابناء وطنهم . فهجموا عليه وأوسعوه ضربا لكن قائد الدرك حسني بك صخر انقذه من بين ايديهم وصرفهم عنه .

انصرفوا وهم يهزجون أهازيجهم الحماسية المعروفة ففاجأهم الملازم «مورل» صنو الكابتن كاربيه وزميله في الاعمال القاسية البربرية فنزل على ظهورهم بالسياط وعلى آذانهم باللعنات فما كان من حسين مرشد الباسل الا أنه ضربه على أنفه بالعصى ومن يوسف بك بن عبد الغفار باشا الاطرش الا أنه اطلق عليه عياراً نارياً .

انهزم مورل والاحجار من أيدي المهاجين (المتظاهرين) تنهال على كتفيه حتى بلغ دار الحكومة فطلب معاونة الجنود بالهاتف في القلعة من غير استشارة رئيسه الكابتن رينو . أما هذا فانه ارتأى أن يقف عند هذا الحدّ ويحل المعضلة حلّاً سلميا فدعا اليه الوجوه والاعيان وحملهم على الاعتراف بخطئهم ففعلوا ثم طلب منهم غرامة قدرها مئتا جنيه عثماني فأدوها . لكن ذلك لم

يكن كافياً في نظر المستعمرين . بل أصروا فوق ذلك جهلاً منهم بطبائع البلاد على هدم دار حسين مرشد فهاج الشعب لهذا الطلب القاسي الذي لا يعمل المستعمرون شيئاً مثله وقام بتظاهرة مسلحة اطلق فيها الوفا من العيارات النارية.

وفي غضون ذلك نزل الجند الذي طلبه الملازم موريل واستعد للقتال وراء المتاريس لكن سلطان باشا الأطرش وعبد الغفار باشا الأطرش وحسني بك صخر كانوا قد تمكنوا من اخماد الهياج وصرف الناس الى منازلهم

أراد سلطان باشا الاطرش في صباح اليوم الثاني ان يتغيب عن السويدا ويذهب الى قرية سميع لحضور مأتم حمود نصر فأوعز اليه الكبتن رينو بالبقاء لأن خطته في تهييج الناس على كاربيه لم تنته بعد ولم تتكلل بأكاليل الظفر كما يشتهي . وهذا ما يفسر لنا الاجتماع الذي عقد في المساء في بيت الترجمان يوسف الشدياق وقد حضره كل من سلطان باشا والمرحوم حمد البربور البطل المشهور وحسني بك صخر قائد الدرك .

وكانت الغاية من هذا الاجتماع المثابرة على التظاهرات لعزل كاربيه .

ازداد الاضطراب واكفهر وجه السماء الصافية فارسلت المفوضية في اليوم الخامس من العيد القائد (تومي مارتان) الاستعماري الظالم المشهور لتناول مقاليد الامر من رينو بتهمة انه هو المؤسس لهذه الاضطرابات فاخذ في التحقيق الدقيق ومن ثم دعا اليه عبد الغفار باشا ونسيب بك والأمير حمد الأطرش وقال لهم ان الجنرال سراي يرغب في مقابلتهم .

غادروا الجبل لتحقيق هذا الطلب فلما بلغوا دمشق قبض عليهم المسيو شوفلر مندوب المفوض وساقهم الى المنفى في تدمر فجازت عليهم هذه الحيلة الدنيئة التي كانت من اكبر الاسباب في منع الناس من الاستسلام للخداع الاستعماري فيما بعد .

وكاد يكون من باب الاساطير ان يمثلا خطيرا لأعظم دولة عسكرية ، يحتال بحيلة الصعاليك الصغار فيحول دعوة رسمية للالتقاء الى سجن في القلعة ونفي في الاماكن الخالية .

وبعد ايام أخر سيق الى حبسه كل من برجس بك الحمود وعلي بك الأطرش وحسني بك صخر وعلي بك عبيد واخذوا معهم في طريقهم على دمشق يوسف بك الاطرش ..

وكان سلطان باشا الاطرش في تلك الغضون قد رحل الى قرية (رساس) فجاء الامير حسن الاطرش وقص عليه ما جرى من حديث النفي الى تدمر فاشمأزت نفسه كثيراً ورأى الفرصة سانحة لاشعال النار فاخذ يتجول في القرى والدساكر ويحض الناس على استعمال السلاح .

صفحة تلذ قراءتها

ابتدأ من أم الرمان فامتان فملح ثم عرمان فصرخد . وليس في تاريخ الثورة جميعا صفحة تلذ قراءتها اكثر من خبر السياسة التي سلكها في التنقل من قرية الى اخرى فلما ذهب من أمتان الى ملح مثلاً سار معه نحو اربعين فارسا لكنه ارسل رسلاً قبله فأوهموا اهل ملح ان جميع الرجال القادرين على حمل السلاح في

المقرن الجنوبي هبوا على قدم وساق لانقاذ شرف الطائفة الدرزية .

وكان اذا دخل قرية صف الناس من حوله ورتبهم ترتيبـــاً يلفت الانظار ثم يأخذون جميعاً في اطلاق العيارات النارية في الفضاء مع اهازيجهم الحماسية التي قلما يجاريهم احد في استخدامها وحسن استعمالها .

لا جرم ان القرى كانت تلاقيهم بتلك المادة الجميلة عـــادة « الانتخاء » المشهورة ومن ثم تنضم اليهم وتسير معهم .

ويجدر بنا ان لا نغفل هنا اسم الشيخ يوسف العيسمي من قرية امتان فقد مثل في هذا الترتيب دوراً خطيراً .

لما بلغ المجاهدون قرية عرمان استقبلهم اهاليها خير استقبال وعلى رأسهم ابو حسن فضل الله بك الاطرش البطل الحر المشهور وفيها تقرر الزحف على صرخد لحرق البعثة الفرنسوية فيها .

وقد نفذ هذا القرار بمساعدة اهل صرخد انفسهم وبهمـــة رجلها جاد الله بك الاطرش .

هنا بلغ سلطان باشا خبر تجمع العسكر في « القرية » فقرر مع الزعماء الزحف عليهم والايقاع بهم فطـــاروا الى الحرب كالصواعق المحرقة .

اراد الجنود الذين قدموا « القرية » لارهاب سلطان باشا واخوانه الدخول اليها فحذرهم علي بك شقيقه من مغبـــة الامر فرحلوا عنها الى الكفر حيث نزلوا في ٢٢ تموز سنة ١٩٢٥ على مائها وأخذوا في غسل ثيابهم واصلاح شؤونهم لكن شيخ الكفر اسعد بك مرشد عرف ما كان جارياً وراء الستار فأنذر الكبتن

نورمان قائد الحملة ثلاث مرات متواليات بوجوب الحذر ومغادرة هذا المنزل فلم يحفل بكلامه سوى ان ترفع بجنوده الى موقـــع وعر مستدير يشرف على الطرقات واستعمل من أنواع التهديد والوعيد للرجال الذين أنذروه ما دل على غروره وخفة عقله بحيث قال انه بمجرد الرشاش الذي يحمله قادر على قتـــل ثلاثة آلاف درزي .

الملحمة الأولى

الموقع الذي حدثت فيه الملحمة من أوعر وأحصن ما رأت عيني فقطع الصخر مصطفة فيه بشكل مستدير اصطفافاً يكاد يكون مصطنعاً . وكل واحدة منها متراس قائم بنفسه . ومؤلف مجموعها شكل بحيرة جافة لا قبل لأحد بمفاجأتها او بمهاجمتها اللهم الا من على أوتي ايمان الأنبياء وعزم الجبابرة .

انقسم الدروز الأشاوس بقيادة سلطان باشا الى قسمين وخفا من جهتين متقابلتين وكان منظرهم وهم يقتحمون نيران البنادق من ارهب المناظر . ومن أراد أن يقدر حرارة الحماسة التي كانت تغلي في صدورهم فحسبه أن يتذكر انهم قطعوا تلك المسافة الشاسعة من صرخد الى الكفر عدواً ولم يقفوا الا حيث أوردوا خيولهم ماء في منتصف الطريق وأوردوا سيوفهم دماء في منتهاه .

لم يمض عشرون دقيقة على الملحمة بالسلاح الأبيض حتى قضوا على الحملة قضاء مبرماً . فلم يفلت منهم الا بضعة أفراد استطاعوا نقل خبر الكارثة الى (تومي مارتان) في السويداء ولم يزد عدد

المجاهدين على المئتين وتجاوز عدد الأعداء على المئتين والستين بينهم عـــدد كبير من الضباط الفرنسويين . وكانت خسائرنا أربعين شهيداً . منهم مصطفى بك الاطرش شقيق سلطان باشا واسماعيل بك الاطرش نجل جاد الله بك .

ان الداخل اليوم الى هذه البحيرة (اوائل ايلول سنة ١٩٢٥) وقد جفت دماؤها يرى فيها أرجل الجنود مستترة وراء الصخور ومن هنا وهناك جماجم تبصبص وهي مكشرة عن أنيابها كأنها منكمشة من هول الضربة التي نزلت بها ويؤكد الثقات ان الجمجمة التي على الباب هي جمجمة الكابتن نورمان فكأنها تحرسها من سباع البر وطيور الفلا .

ولهذه الملحمة شأن خطير في تاريخ النهضة السورية :

(أولاً) لأنها جعلت الثورة أمرا مبرماً

(ثانياً) لأنها دلت على ان الحق الصريح ولو نقصته العدة والعدد قادر في كثير من الاحيان على سحق الباطل القبيح ولو أيدته الآلات الضخمة والجحافل العظيمة . وهذا كان من أكبر البواعث على النشاط الذي أبداه المجاهدون في معاركهم التي تمت فيما بعد .

(ثالثاً) لأنها ألقت عبء القيادة العامة في الجبل مدة الثورة على عاتق الزعيم الذي انتصر فيهـا هذا الانتصار الباهر . ومعنى ذلك انها أوجدت من الفوضى التي يتعشقها السوريون نواة صالحة للنظام وتوحيد المساعي لبلوغ غايات حربية معينة . ولولا ذلك لكان عدد الذين يتسنمون غارب القيادات الحربية بحق أو بغير حق

لا يحصى . لأن عادتنا ان من آنس منا في نفسه قمحة من الحيـاة توهمها جبلًا من القوة .

جاء النذير الى تومي مارتان فنعى له نورمان وحملته المختلطة وكيف انأسود الجبل لم يغادروا قطيع الجيش الا أشلاء مبعثرة بين الصخور . فقام هذا لهول الخبر وقعد وعرف ان (الكفر) اذا « حلقت لها على السويداء الا أن تبل » . لذلك حمل صندوق المال من دار الحكومة وجمع كل الفرنسويين نساء ورجالاً وفر بهم الى القلعة للاحتماء بجدرانها الصفيقة .

ويجدر بنا ان نذكر ان المراسلات الرسمية التي أطلعنا عليها (المسيو كيريلس) في جريدة (الايكودي باري) دلت على ان (تومي مارتان) كان واسع الاطلاع شديد التشاؤم عارفاً بالدماء التي ستسيل بالجبل . وقد ذكر في احد تقاريره تاريخ اتفاق عقد بيننا وبين زعماء الدروز فجعله في اليوم الثامن من تموز سنة ١٩٢٥ ولعله يشير بذلك الى احد الاجتماعات التي عقدناها في دارنا لأن الجلسة التي قررنافيهاإضرام نيرانالثورةفيالشمال مع اخواننا في الجنوب عقدناها في بيت رجل من كبار رجـــال الوطن وهو الحاج عثمان الشرباتي المشهور في مساء اليوم العشرين من اغسطس سنة ١٩٢٥ ودامت الى صباح اليوم الحادي والعشرين وقد حضرها من كبارالرجال يحيى حياتي بك وحسن بكالحكيم وسعيد بك حيدر وجميل بك مردم بك ونسيب بك البكري وفوزي بك البكري والمرحوم سعد الدين بك المؤيـــد العظم والمرحوم توفيق افندي الحلبي وغيرهم. وتقرر انيكون خروجنا

من الشام في يوم الأحد في ٢٢ منه .

نزل المجـــاهدون في الـويداء لحصار القلعـــة بعد ما كثر عديدهم وتضخم بانضمام البيوتات الى جانبهـــم ما عدا بعض افراد لوثوا شهرة آبائهم واجدادهم ببقائهم عـــلى موالاة الذئاب المستعمرة حتى النهاية . وحسبهم ســـبة تبقى في رقابهم ما بقي الدهر ان الفرنسـويين انفسهم اعترفوا بالفضائح التي اقترفوها في الجبل – ناهيك بأخبار الجرائم التي اجترمتها المدافع والطيارات ورأوها هم بأعينهم تنزل على رؤوس المخـــدرات والأطفال . وقد فعلوا ذلك كله في سبيل ابتسامة من الجنرال أو للحصول على فرنك من المال ..

معركة المزرعة

حملة ميشو

اضطرب الجنرال سراي لنعيق الغربان أيما اضطراب واخذت الاوهام تستولي عليه فلم ير امام عينيه باباً لاعادة السكينة الا بالقوة شأن كل عصبي يفقد موازنته في الكوارث المفاجئة . فجهز حملة كبيرة لتأديب الثوار يتجاوز عدد افرادها خمسة آلاف وعلى رأسها الجنرال ميشو وهي مجهزة بأحدث الآلات والعتاد وتحوم فوقها الطيارات وعزرائيل يتدلى من تحت اجنحتها . شرّقت هذه الحملة من محطة زرع (أزرع) في صباح اليوم الاول من أغسطوس سنة ١٩٢٥ فملتقى معها الدروز في حرب وكان عددهم يقارب ثلاثة آلاف فرأوا أن لا قبل لهم بمصارعتها للرهم الذي استولى عليهم مما رأوه بأعينهم من نارها وسمعوه بآذانهم من أفواه الجواسيس عن عددها وعُددها فانهزموا شر هزيمة بحيث أن علم قرية (امتان) وهي في الطرف الجنوبي من الجبل بات مع من يحمله في أرجائها . واما الحملة فقد نزلت على ماء يدعي ماء المزرعة

بالقرب من السجن والجدل .

حدث في المساء أن ثلة من المجاهدين من أهل المقرن الغربي من نجران وعاهرة وغير ذلك من القرى ومعهم عدد كبير من أهل المقرن الشرقي بينهم من الابطال أمثال – جاد الله بك سلام – ومحمد بك شرف والجميع لا يبلغ عددهم المئتين التقوا بمؤخرة الجيش حيث الذخائر في الطنابر وعلى ظهور البغال تحرسها «الفرقة السورية» وكان ذلك في المقرن الغربي ما بين قريتي (الدور وبدرى الحرير) فانقضوا عليهم انقضاض الصاعقة وما زالوا يعملون السيف في نقرهم والنار في ظهورهم حتى اذا خيم المساء كان العتاد جميعاً والبغال والخيل بقطرة المجاهدين الى القرى ولم ينج من الغرق إلا من لاذ بالفرار الى زرع ليعلم القائد أن سيل بني معروف لم يبق ولم يذر .

فتح أهل القرى القريبة عيونهم في الصباح فرأوا الاحواش والاصطبلات مملوءة بالاحمال المعلمة والدواب المسومة والاهازيج تشق عنان السماء بذكر النصر الباهر والكسب الثمين فهبوا الى خيولهم وأسرعوا الى اكمال العمل الذي لم يتم في المساء .

وقــــد تقدم الجميع مائة وسبعة عشر فارساً من أشاوس السويداء المشهورين ووراءهم على البعد من أهل الجدل ونجران وسليم وغيرها من القرى القريبة زهاء أربعمائة مجاهد . فلما لاحت عين المزرعة لهم كان في السماء طيارة تحلق فوق الجيش فنزلت لتخبر القائد بوجوب التقهقر للانكسار الشنيع الذي حدث في اليوم الماضي . ويقال ان الجنرال ميشو كان في هذه الطيارة .

وبينما كان الجند يستعد لتنفيذ الامر في التقهقر رأى على

بعد أبنـــاء معروف فأسرع لتكويم المتاريس والاضطجاع في الخنادق الطبيعية . ثم أخذ البرق يومض من أفواه المدافع والبنادق والرعد يقصف فيصم الآذان لكن أشاوس السويداء تقدموا . خرق رصاص البنادق الصدور وحصدت قذائف المدافع الارض ونثرت قطـــع الصخر في السماء لكن أشاوس السويداء تقدموا .

واخذت الصفحات تكر وتفر كأنها ابطال الجاهلية وهي تصب من افواهها الحمم ، لكن أشاوس السويداء تقدموا .

ثم جاءت الطيارات تحلق فوق هام الرجال وتلقي من تحت أجنحتها أطنان المفرقعات فتحفر هذه في الفلائح حفراً ما أشبهها بالآبار الناضبة يغوص فيها الفارس الى مفرق الرأس ، لكن أشاوس السويداء تقدموا - وتقدموا لأنهم مؤمنون .. **والمؤمن اذا اهتزت نفسه بتيار العقيدة اقتحم المهالك وشق طريقه ولو في صم الصفا .**

دب الفزع الأكبر في قلوب الجنود فأخذوا يتلفتون كالصرعى ويتنقلون كالمخالطين في عقولهم على غير هدى ، ويطلقون نيرانهم بصورة طائشة ومن غير تسديد لأن حذر الموت المـــداهم حال دون ارتكاز انتباههم على فوهات البنادق . فانقض عليهم ابنـــاء السويداء ومن ورائهم سائر الدروز الذين تبعوهم فجرت ملحمة بالسلاح الابيض لم يجر مثلها في البلاد منذ ذكر الواقدي خبر الفتوحات العربية .

فمن برز في هذه الملحمة وفاق الاقران المرحوم سليمان العقباني

من قرية السجن فقد كان ينفرد عن الدروز ويهز صارمه وينادي «اشهدوا اشهدوا . أقروا . أقروا . » ثم يكرعلى المستعمرين فيضرب الواحد منهم ضربة كثيراً ما بترت عنقه او شقته نصفين وقد قتل على هذه الطريقة نحو ثمانية عشر جندياً الى ان اصابته رصاصة فخر صريعاً يتخبط بدمه .

وممن قتل في مثل هذه الملحمة من الزعماء الكبار المرحوم حمد بك البربور من قرية (ام الرمان) وهي قرية في المقرن القبلي لها الشأن الأكبر في الاعمال الوطنية الخالصة ، ولشيخها سلمان بك الاطرش وزعمائها قاسم النبواني والشيخ ابن زين الدين وغيرهم السمعة الطيبة في الكرم والشجاعة . فقد كان المرحوم حمد بك على صغر سنه آية في الذكاء والعقل والشجاعة النادرة وكان اليد اليمنى لسلطان باشا الاطرش في السلم والحرب ، واجمع الرواة على ان فقده كان مصيبة في هذه الحرب . ولو بقي حياً الى يومنا لكان له شأن في هذه الثورة ما بعده شأن .

وحدث في تلك الساعة ان جاسوساً أتى إلى احد الزعماء في دمشق من قبل الكابتن (بسكال) وأخرج من جيبه ساعة وقال وهو يشير اليها « حينما يصل العقرب الى هذا الرقم — يعني الساعة الاولى بعد الظهر — يكون الجيش قد بلغ السويداء وقضى على المتمردين من الدروز » ولم يدر في خلده ان الجيش في تلك الساعة يكون قد خرج من عالم الكون الى عالم الزوال .

باد الجيش ولم يسلم منه غير فلول تبلغ زهاء الف ومائتين لم يصلوا الى السكة الحديدية في قرية زرع إلا بشق الأنفس .

وقد وصفهم احد المسافرين في المحطة فقال :

« لا أدل على الاختلاط الذي طرأ على عقول المستعمرين في هذه الملحمة من رؤيتهم وهم يلقون بانفسهم على القطار الذاهب الى دمشق فقد كانوا يتمسكون بالمركبات تمسك الغريق بنواتىء الصخر . وكثيراً ما كان الشبح منهم يتراءى عن بعد قادماً الى المحطة ثم يختفي أما لخور عزيمته او لضلاله الطريق .

وكانت الضمائد على جراحهم واللفائف على رؤوسهم توهم المرء انهم اهل مستشفى فروا منه لحريق اصابه .

لقد زرت ساحة هذه الملحمة مراراً وحاولت أن أحصي عدد الجثث الملقاة فيها بالضبط فلم افلح لكثرتها؛ وحسبي ان اقول انني مشيت من عين المزرعة على الطريق المعبدة مغربا نحو ساعتين بين الجثث والعتاد الملقى على الارض فلم انته منهـــا ، ورأيت خمس سيارات مصفحة محروقة وقد امالها الدروز على جوانبها حين الهجوم بأكتافهم وقتلوا سواقيها ومساعديهم بالمديـــات من كواها المرتفعـــة . وان رؤية جثث هؤلاء السواقين متعانقين وملتحمين تدل على هول ما لاقوا من المهاجمين . ويلوح لنا ان المستعمرين ما خطر ببالهم قط ان الايمـــان النابض بين دفات الصدر يستطيع مهاجمة النيران المندلعة من صفائح الحديد !

ورأيت من المدافع ذات العيارات المختلفة (٧٥ ، ١٠٥ الى آخره) عدداً لم اتمكن من ضبطه والقنابل ، كانت مكومة على جانبي الطريق وامشاط الرشاشات مبعثرة في الخنادق على الجانبين . لا جرم أن جهزت هذه المعركة الجبل بجميع الخيل والبغـــال

والمركبات والبنادق وسائر الاعتاد التي استخدمها في جميع حروبه التالية مع الفرنسيين سنة كاملة . وقد أطلعني أحد المتصلين بالمفوضية في بيروت على احصاء بما فقده الفرنسيون في تلك المعركة فبلغ زهاء اثنين وخمسين مليوناً من الفرنكات .

ينهزم المستعمرون انهزام الفوضى أمام خصمهم المجاهد فيجهزونه بالسلاح الذي جاءوا به لقتاله ثم لا يلبثون أن ينادوا بأعلى صوتهم على الملأ من غير حياء ولا وجل « **ان هذا السلاح هو من البولشفيك أو من الالمان أو من الانكليز** » !! انهم يجهزونه بواسطة الكلام فقط بسلاح خصومهم الماضي ليستروا به ما أصابهم من الانكسار فيضيفون الى عار الفشل خزي الكذب وشنار البهتان .

ان معظم السلاح والعتاد بما لم تشتره الثورة بمالها الخاص من بقايا الجيش العثماني هو من هزائم جيش الاستعمار ؛ وقد بلغ في احد الايام حداً من الكثرة أن بيعت البندقية القصيرة الجيدة منه بجنيه عثماني واحد .

عمل الجنرال سراي جهد المستطاع لاخفاء خبر هذه الكارثة عن المناطق السورية الأخرى ، وفرق العيون والأرصاد على دور المشتبه فيهم ، وكان نصيبي من ذلك ثلاثة يعملون بالتناوب او الاشتراك مما عرقل المساعي كثيراً وحال دون عقد بعض الاجتماعات المهمة عندي . بيد أن كل سعي لزحزحة الكابوس الفرنسوي عن صدور البلاد لا تستطيع القوى البشرية ستره عن الراصدين ، لأن عيونهم تشبه عين الفلاح في السنين الممحلة الناشفة فهي ابداً محدجة

بالأفق ترقب اكفهرار وجه السماء .

أخطأ الدروز فلم يواصلوا الزحف على الشام بعدما أفنوا حملة ميشو هذه ،وخاموا قلب الجنرال سراي من موضعه . وبذلك اضاعوا فرصة ثمينة ، ولم نكن نحن في الشام على استعداد بعد لجني ثمر هذا الانتصار الفجائي الباهر .

وقد تناولنا بعد حين رسائل الدعوة لوضع الخطط المشتركة من سلطان باشا الأطرش وجاد الله بك الأطرش ومحمد عز الدين بك الحلبي فدرسناها درساً وافياً وقررنا بشأنها القرارات الضرورية وكان مندوب الجبل الذي حمل الينا رسائل هؤلاء الزعماء الضابط محمد بك كيوان الذي نزل ضيفاً ببيت نسيب بك البكري .

لكن حدث في تلك الغضون أن بعض الأصدقاء أرسل الى الجبل ثلاثة مندوبين لمذاكرة الدروز هم السادة : توفيق الحلبي وأسعد البكري وزكي الدروبي فبلغوا الجبل في الساعة التي كان الكابتن رينو مندوب الجنرال سراي يفاوضهم باسم الدولة المنتدبة لوضع أسس السلام .

فحالما دخلوا المجلس تكلموا باسم الأحزاب وفي مقدمتها « حزب الشعب » وقاوموا فكرة الصلح مقاومة عنيفة حتى قضوا عليها بعد ما أوشكت أن تتحقق .

ان عملهم هذا قد حال دون عقد الصلح حتما فهو بذلك كان ثوريا من الطراز الأول . بيد انه أضر ببعض الزعماء وبأعضاء حزب الشعب ضرراً بالغاً فوضعهم تحت المراقبة الدقيقة وكاد يشل حركاتهم .

والانكى من ذلك انهم اتفقوا مع سلطان باشا على ان يزحف الدروز على جهات الكسوة في صباح اليوم الثالث والعشرين من أغسطوس بحيث نخرج الى ملاقاتهم مع عدد من المجاهدين الشوام لا يقل عن المائتين فنهجم مشتركين على عاصمة الامويين الخالدة .

لقد تم هذا الاتفاق في نحو اليوم السابع عشر من أغسطوس وبلغ الوطنيين خبره في اليوم العشرين فلم يعد أمامهم لتنفيذه الا يومان اثنان الحادي والعشرون والثاني والعشرون . أذن فتنفيذ مثل هذه الخطة الخطيرة على هذا الوجه من السرعة هو من باب المستحيلات . ومع ذلك فقد صرفت الجهود العظيمة واتخذت القرارات العملية الخطيرة وبعد ثلاثة أيام كنت على طريقي الى الجبل بعد ما حاولت الوصول اليه من قرية « حوش المتبن » بحسب الاتفاق الذي تم بيننا في بيت الأخ الحاج عثمان الشرباتي. وقد صرفت في تلك القرية ليلة مع يحيى حياتي بك ونزيه بك المؤيد عند جميل بك مردم بك فلم أجد شيئاً من الاستعداد مما اضطرني الى العودة في صباح اليوم التالي قبل الشروق من غير أن يشعر بي احد .

اجتمعت بسلطان باشا الأطرش في قرية « كفر اللحى » في أواخر أغسطوس سنة ١٩٢٥ ومعي نزيه بك المؤيد والمرحومان سعد الدين بك المؤيد وحسن بك تحسين وقد استشهدا في سبيل هذه الثورة . وكان نسيب بك البكري ويحيى بك حياتي قد سبقانا الى قرية عرى ، وفي « كفر اللحى » هذه جاء دروز الأقليم فاظهروا تحفزهم للحرب وارتباطهم بالثورة وكانت الحماسة بالغة أقصى أعماق

القلوب وكانوا وهم « ينتخون » أو يعرضون أمامنا على الطريقة الدرزية الحورانية شعلة تندلع منها ألسنة اللهب .

وكان أول أعمالنا عند بلوغنا الجبل اننا حشدنا المجاهدين لمهاجمة دمشق ، لأن الحملة الدرزية التي وعد سلطان باشا بسوقها الى الكسوة للاجتماع بالمجاهدين الشوام لم يبلغ عددها النصاب الكافي . ولما وصلت الى جبل « المانع » (٢٣ أغسطوس سنة ١٩٢٦) تلاقت مع الفرنسويين فاضطرت الى الرجوع بعدما أمطرتها الطيارات وابلاً من القنابل .

صرفنا كل المساعي في الأسبوع الأول من شهر ايلول لتنفيذ خطة الهجوم على الشام وسلمنا القيادة في هذا العمل الى يحيى حياتي بك فكان رأيه حشد خمسمائة فارس تنقسم الى ثلاثة اقسام فتدخل العاصمة الأموية من ثلاثة مداخل مختلفة . لكن لم يجتمع لدى سلطان باشا العدد الكافي أيضاً للقيام بهذه الخطة الجوهرية . وقد رأينا يومئذ من الدماشقة الذين قدموا الجبل الاشتراك معنا في الخطط والتعاون غير من ذكرنا المرحوم حسن الخراط الذي لعب أعظم الأدوار في الغوطة - والمرحوم سرحان أبا تركي الديري الشجاع الباسل والشيخ محمد حجاز ثم حسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر من كبار مؤسسي حزب الشعب ، وقد وصلا الى الجبل من زحلة بطريق وادي العجم . وبعد حين وصل عدد من الضباط والمتطوعين الاشاوس منهم المرحوم ابراهيم صدقي وجميل البيك وعبد القادر القواص وبشير الهندي وغيرهم .

وبينما كنا نمهد السبل لتأليف حملة مشتركة تهاجم الشام كان

الجنرال « غملان » بحشد الجند على طول السكة الحديد في حوران ، فرأت القيادة العامة أن توجه نظرها الى مهاجمة هذا الجند فتركنا قرية « أم ضبيب » في الشمال وذهبنا الى جهة الجنوب الى قرية « عرى » حيث اجتمعت القرى للتداول في هذا الأمر .

معركة المسيفرة

وقد أسفرت المداولات الطويلة المترددة المملة عن الاتفاق على مهاجمة الجند في اهم نقط تجمعه . وكان المجـــاهد الذي وضع الخطة واصر عليها محمد بك عز الدين الحلبي الثائر الشجاع الذي مثل دوراً مهماً في هذه الحرب الضروس ، وخلاصة رأيه ان يفاجأ الجيش الفرنسوي بقرية المسيفرة مفاجأة تامة في الصباح تقضي عليه وتكسب الدروز الذخائر العظيمة التي يحملها . فاجتمع من بني معروف عدد يناهز الخمسمائة ، وربما بلغ عدد الفرنسويين الألفين أو اكثر .

وقد حضر هـــذه المعركة من ابناء الشمال نزيه بك المؤيد وسرحان ابو تركي الديري .

وخلاصة ما جرى ان الثوار ارادوا الزحف على المسيفرة خلسة قبل طلوع فجر السابع عشر من شهر ايلول (سبتمبر) فاتفقوا أن لا يأتي أحد منهم بحركة من شأنها تنبيه العدو الا ان عياراً ناريا أطلقه أحد المشتبه فيهم (ابراهيم الأطرش) أيقظ الحرس الفرنسوي قبل وصول المجاهدين بنحو خمس دقائق . فاخـــذوا في اطلاق الاسهم النارية في الفضاء لانارة الظلماء ، ومن ثم ابتدأت المعركة

بصورة شديدة جداً بحيث اضطر الجنود الى الانسحاب والالتجاء الى الاستحكامات التي اقاموها داخل القرية. لكن المجاهدين تعقبوهم الى البيوت واحتلوا القسم الشمالي الشرقي من القرية ، وأخيراً أحاطوا بها من جميع اطرافها بواسطة الامدادات التي اخذت ترد عليهم تباعاً ، فلما أشرقت الشمس بنورها كان قسم من الثوار كبير في القرية نفسها . واما الجنود فكانوا في دائرة عميقة حواليها الاستحكامات ومن وراء الاستحكامات السيارات المصفحة تدور لتحميهم من المهاجمة ، وكانت القذائف من الناحيتين تصل إلى بئر الماء فتمنع الفرنسويين والدروز معاً من الوصول اليه .

هلعت قلوب الفرنسويين لهذا الاقدام الباهر وكادوا يستسلمون لولا تلك الخلة القبيحة التي كثيراً ما اضاعت على الامة العربية جهودها الثمينة وهي الالتهاء «بالكسب» او الغنائم وترك العدو وشأنه كما حدث في وقعة «بواتيه» في فرنسا بين عبدالرحمن أمير الأندلس وشارل مارتل قائد جيوش الفرنجة في سنة ٧٣٢ . ولو قدر للعرب يومئذ ان يحصروا جهودهم في مقـــارعة الخصم لاستولوا على فرانسة جميعها ، كما لو قدر لأبنـــاء معروف في « المسيفرة » أن يحولوا انظارهم عن الغنائم الى العدو المتحصن على بعد أمتار منهم لأخرجوا فرنسة من حوران ودمشق وسائر المناطق الداخلية .

أتت الطيارات فوجدت جموع المجاهدين لاهية بالخيل والبغال والسلاح واكوام الذخيرة فأمطرتهم وابلًا من المفرقعات شتت شملهم وأكره المحيطون بالقرية منهم على الانسحاب ، واما الذين

دخلوها فقد تحصنوا في بيوتها وأروقتها الى أن جنّ الليل فخرجوا تحت ستاره بغنائمهم ، وقد أبلى « حمزه بك الدرويش » في هذه المعركة داخل القرية بلاء حسناً أكسبه شهرة فائقة . ومما يجدر ذكره ان عتاد المجاهدين نفد منهم بعد ابتداء المعركة بمدة لا تتجاوز الساعتين ، ولكنهم استعاضوا عنه بالعتاد الذي وجوه من الفرنسويين حتى تمكنوا من الاستمرار على القتال سحابة يومهم .

وذكر لي نزيه بك المؤيد انه رأى محمد بك عزالدين الحلبي يقتحم النيران التي كانت تساقط عليه كالمطر من كل حدب وصوب ومعه سبعة عشر فارساً فقط لانقاذ الدروز المنقطعين في القرية . وكان من نتائج هذه المعركة العظيمة ان فقد الفرنسويون ما يربو على تسعمائة من الجنود علاوة على الدواب والاعتاد التي لا تدخل في حصر . وأما خسائر الدروز فكانت دون المائتين حتماً . والذي يهم في هذا الشأن ان العدو بفضل دهائه وتنظيم دعايته استطاع ان يقنع الدروز إقناعاً تاماً بأنهم كسروا وهزموا شر هزيمة . .

ولولا معركة السويداء الاخيرة التي حدثت في الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٦ لقلت ان وقعة المسيفرة هذه هي ختام الحرب التي ظهرت فيها البطولة الدرزية في الجبل باضخم مظاهرها واعظم شدتها .

وحسبي أن أذكر القصة الآتية للدلالة على المفاداة الغالية والوطنية الصادقة والشجاعة الفائقة التي بدت في تلك الايام :

بيت حمزه

في رماس اسرة تدعى « بيت حمزه » كان على ابنائها حماية العلم – العلم الذي يحمله الغزاة من أهل هذه القرية . فلما نفروا الى حرب المسيفرة نفر معهم رب هذا البيت وهو شيخ مسن في نحو الثمانين من العمر ومعه أولاده الاربعة ، وقد اتخذ على نفسه اسقاء المجاهدين من (قربتين) حملهما على بعيره لهذه الغاية . وأما أولاده فالدفاع عن علم رماس .

حدث ان الاول منهم حمل هذا العلم وتقدم به امام اهل قريته حتى كاد يطأ استحكامات الفرنسويين فسددوا عليه بنادقهم فقتلوه . فتقدم اخوه ليحل محله ولكنه اصابه ما اصاب اخاه ، فخر بجانبه . فتقدم الثالث لان نفسه أبت ان ينام علم رماس ويتراجع الرماسيون ولكنه اصيب بالرصاص ايضاً فخر بجانبهما . ولما تقدم الرابع للقيام بالواجب حاول الرماسيون عبثاً ان يثنوه عن عزمه رحمة بالعجوزين امه وابيه ولكنه ابى الالتفات الى ضراعتهم وما زال يمشي حتى وصل الى العلم والى اخوته القتلى بجانبه وما كاد يرفعه ليلوح به لاهل رماس حتى اصابه ما اصاب اخوته فخر صريعاً مثلهم .

أما الشيخ الذي كان يسقي المجاهدين فقد عاد في مساء اليوم التالي من المسيفرة محملاً على ظهر بعيره لأن شظايا قنبلة أصابته من الطيارة . وهو غير عالم بحديث أولاده . فأنزلته زوجه وانحنت عليه تقبله طيلة ليلها وهي تدعو ربها أن يعجل برجوع أولادها

ليخففوا عنه ألم الجراح . لكن دعاءها لم يستجب وآمالها لم تتحقق وقد انتظرتهم حتى الصباح فلم يعودوا فأخذ قلبها يخفق وأطرافها ترتعش لأن التغيب في مثل تلك الأيام نذير مبين .

شعرت الوالدة برعشة الفراق بعد أمل التلاق فأخذت تنظر في وجه الشيخ الراحل وتقبله قبلات حارة كأنها تحمله منها ما يستطيع حمله افلذات أكبادها المضطجعين بجانب استحكامات المسيفرة وكانت في بعض الأحيان تنحني عليه وتهمس بأذنه كلاماً لم يفهمه أحد من الموجودين بجانبها وأخيراً خارت قواها فتمددت بجانبه صامتة من هول الموقف وشدة الألم .

جاءني أهلهــــا الى بيت متعب بك الاطرش شيخ القرية يستنجدون بي لاسعافها ،فذهبت معهم على الفور عليّ أنجدها فبلغت الدار بعد عشر دقائق فوجدت ذراعها الأيمن تحت رأس الشيخ وكلاهما جثة هامدة لا حراك بها . **حقاً لقد مات رب بيت حمزة وربته وأولادهما الفتيان الأربعة ولكن روح حمزة باقية في قلوب الاجيال العربية الآتية توحي اليها كيف يكون القيام بالواجب .**

وقد حدث عقيب معركة المسيفرة حادث ذو شأن تاريخي في هذه الثورة من الطراز الاول .فان المرحوم مظهر السباعي ومنير الريس الضابطين المجاهدين قدما الينـا من حماه الى الجبل بطريق شرق الاردن يحملان صورة اتفاق لأجل اشعال نار الثورة في حماه أمضاه بعض الزعماء أمثـال فوزي بك القاوقجي وغيره من بني العظم والبرازي — ومن مواد هذا الاتفاق ان تحصل مناوشات

تمهيدية في اول ت ١ من تلك السنة في الغوطة ، وأن يتقدم الى جهات « القريتين » قوة من الجبل لا تقل عن مائة فارس لينضم اليهـــا فوزي بك القاوقجي ومن معه من الجنود . وأن يــــكون يوم الثورة في حماه اليوم الثـاني من ت ١ ، وأن لا يعقد الجبل صلحاً منفرداً بل أن يكون الصلح مشتركاً باسم سورية وغير ذلك من الشروط التي لا محل لذكرها هنا .

قرأت صورة هذا الاتفاق فرأيت من الضروري الاسراع في قبوله لاشغال الجنود الفرنسوية التي كانت يومئذٍ في حوران عن الجبل ، خصوصاً بعـــد ما تزلزلت معنوياته من تأثير الدعاية الفرنسوية عقب معركة المسيفرة .

ركبت وركب معي الاخوان في طلب سلطان باشا فالتقينا به في قرية « رساس » حيث تباحثنا ملياً في هـــذا الاتفاق وفي طريقة تنفيذ بنوده فقر القرار على قبوله جميعاً . ولما كانت الضرورة تقضي بطمأنة الاخوان في حماه بأن الجبل على العهد الذي عهدناه من حيث الصلح المشترك فقد طلبت منه أن يوقـع الرسالة باسم الدروز فوقعها ، وحينئذ سلمتها للبطل نزيه بك المؤيد ومعه مظهر بك السباعي . وكلفتهما ايصالها الى الشمال فسافرا حالاً الى الغوطة وأرسلاها مع الأخ المجاهد الدكتور خالد بك الخطيب . **وقد كان لهذا الاتفاق شأن عظيم جداً في استمرار الثورة لأن المعامع التي حدثت في « حاضر حماه » بحسب هذا الاتفاق سحبت غاملان من السويداء بعد ما احتلها وحالت دون اخضاع الجبل جميعاً .**

دخول الجنرال غاملان السويداء

بعد ما احدثت الدعاية التي بثها الفرنسيون بين الدروز عقيب معركة المسيفرة الزلزلة المعنوية المطلوبة ظن الجنرال غاملان انه يستطيع اقتحام السويداء ففعل ذلك بعد اسبوع تقريباً . وقد كانت نفوس بني معروف ميتة الى درجة انهم لم يطلقوا عليه عياراً نارياً واحداً . هذا ما شهدته بعيني وسمعته بأذني في قرية عرى بالقرب من السويداء وكان معي حضرة الأخ جميل بك مردم بك حتى خشي علينا المجاهدون فأصروا على وجوب انتقالنا من مكاننا الى محل أبعد . ودخول الفرنسويين السويداء هذه المرة ليس له قيمة حربية تذكر بطبيعة الحال لأنه كان شبيهاً بالاستسلام .

ان قلة المياه في الجبل واعتقاد الفرنسويين ان تكون هذه خطة عسكرية دبرها يحيى حياتي بك لحصارهم ، ثم عودة النشاط الى الثوار بعد معركة طفيفة قضوا بها على نحو اربعين جندياً مغربياً خرجوا من القلعة لورود الماء في (أم صاد) كل ذلك ألقى الرعب في قلب الجنرال غاملان وحمله على الفرار بجنوده وبالقائد تومي مارتن ومن كان معه من المحصورين في القلعة منذ معركة (الكفر) الماضية . فغادرها خلسة تاركاً ما فيها من عتاد ثقيل وسلاح كبير وجد في الهرب بحيث ترك قدور الطعام في المطبخ تغلي على النار .

وهكذا نرى ان الانتصار على جنود غاملان يوم انسحابه من السويداء لم يكن عملاً ايجابياً من قبل الثوار بل سلبياً من خوف الفرنسويين وتزلزل معنوياتهم .

المعارك التي اعقبت اخلاء السويداء

يظهر لنا ان الجنرال غاملان بعد ما انسحب من السويداء لم يقنط من التغلب على الدروز في المقرن القبلي ، اذ صرح في بلاغاته انه ينوي احتلال (صرخد) بعدما « يؤدب » بعض القرى . وقد قامت قوة عظيمة من جنوده تتجاوز الآلاف ومعها الدبابات والسيارات المصفحة وبطاريات المدفعية فصادمت شرذمة صغيرة من الدروز بالقرب من (المجيمر) علمتها كيف يكون الصبر على المكارة ، وقد أظهر فيها المجاهد الكبير سعيد بك العاص من ضروب الشجاعة ما بقي مثلاً يتردد في الأفواه . لكننا وباللأسف خسرنا فيها بطلاً مغواراً هو المرحوم نسيب بك الأطرش . ثم انها واصلت زحفها فدخلت « قرية عرى » حيث استلم المرحوم الامير حمد الاطرش ثم زحفت على قرية (رساس) وعسكرت فيها وبقيت هناك ثلاثة ايام كاملة خربت في أثنائها البيوت وقطعت الأشجار بصورة همجية وفي اليوم التاسع من تشرين الأول سنة ١٩٢٥ انسحبت عند طلوع الشمس فلاحقها المجاهدون وعلى رأسهم الأمير حسن الأطرش ويوسف بك الأطرش وسعيد بك العاص والمرحوم فؤاد بك سليم وصياح بك الحمود وغيرهم مما اضطر الجنرال غاملان الى نشر جنوده المشاة . لكن حمد بك عامر البطل المشهور لاقاهم في جهات « تل الحديد » وقد دامت الحرب حتى العصر اذ اصيب العدو بانكسار شنيع فاضطر الى الانسحاب الى المزرعة حيث قضى ليلته .

وفي اليوم الثاني انسحب الى المسيفرة ، وممن اشترك في هذه

المعارك أيضا زيد بك الاطرش وحمزه بك الدرويش وفضل الله باشا هنيده الوطني الصميم والشجاع الباسل . وكانت خسائر العدو عظيمة بينها طيارتان ، وقتلاه تملأ السهل امام رساس لكننا فقدنا رجلاً لا تعادله الرجال هو المرحوم حمد بك عامر وجرح ايضا فضل الله باشا هنيده .

ولما ظهرت بوارق الثورة في الشمال رأى الجنرال غاملان شدة الخطر المحدق بالفرنسويين فاضطر الى الانسحاب من الجبل نهائياً .

ثورة حماه

سافر نسيب بك البكري من (طربا) الى جبال الصفا لتهييج عربانها الغياث وعلى رأسهم خلف النعير . وحدثت في الغوطة في اول تشرين الاول المناوشات التي تم الاتفاق عليها لكن الثورة في حماه تأخرت الى اليوم الرابع منه .

وغني عن البيان ان حركة حماه كانت فريدة في بابها بين جميع الحركات التي حدثت في هذه الثورة من حيث تعيين الوقت واتفاق كلمة الزعماء وتطوع موظف كبير مثل الكابتن فوزي بك للعمل .

وقد كتب اليّ الكابتن فوزي بك عن الثورة ما خلاصته :

تقرر نهائياً أن تكون الثورة مساء الأحد الواقع ٤ تشرين الاول سنة ١٩٢٥ وقت العشاء فطلبت الى القومندان كوستيليه المستشار الاداري لحماه ان أخرج لتفتيش البدو بحجة منع اضرارهم

عن القرى فلبى طلبي وخرجت مـــع مفرزة خيـــالة من « الاسكادرون » الذي كان تحت قيادتي وطفقت أطوف بين هذه العشائر وأبث فيهم روح الكفاح بصورة علنيـــة فاتفقت معي المشايخ وقد تخصص لكل واحد منهم راتب ووظيفة يقوم بها ثاني يوم الثورة في حماه. وفي مدة خمسة أيام كانت جميع الاستعدادات تامة فلما أزفت ساعة العمل أعطيت التعليمات المفصلة لجميع الزعماء. وفي نحو الساعة الثامنة مساء دخلنا حماه ، وهاجمنا جميع المخافر وتسلمنا أسلحتهـــا وقبضنا على الدرك والشرطة ثم سرنا الى دار الحكومة حيث فيها كل قوة الدرك وفرقة من الجيش المختلط فهاجمناها ايضاً . وبعد معركة دامت حتى الساعة الثانية بعد نصف الليل استولينا عليها عنوة وأحرقناها وقتلنا من فيها من الجنود ثم أخذنا نستعد لمهاجمة المواقع العسكرية الحصينة . وفي الصباح خرج فرسان العدو من الثكنات لملاقاتنا فرددناهم بخسارة عظيمة بعد معركة دامت نصف ساعة على (جسر السرايا) ثم اننـــا طرقنا الثكنات فبدأت المعركة تشتد والنجاح حليفنا حتى تكبد العدو خسائر فادحة وفقد أكثر من ثلثي جنده واستلم بعض المحافظين خارج الثكنات مـع رشاشاتهم ولم يعـــد في طاقة المحصورين الدفاع .

ثم وصلت طيارات العدو فأخذت تلقي قنابلها على المدينـة فأسقطنا منا طيارتين . وقبيل الظهر وصلت نجدات قوية تمكنت من انقاذ المحصورين بعد معارك دامية وقد ازداد في آخر الأمر عدد الأعداء زيادة عظيمة أدت الى امتناع الكثيرين من وجوه

حماه الذين جبنوا وحافظوا على الحياد عن القيام بوعودهم وعهودهم . ولما أصبح الاستيلاء على الاماكن العسكرية المملوءة جنوداً متعذرا قررنا الانسحاب الى خارج المدينة لنقوم بالحركات الثورية مشتركين مع البدو . وكانت خسائر العدو لاتقل عن أربعمائة بين قتيل وجريح في حين كانت خسارتنا خمسة وثلاثين ، وفي ليل السابع من الشهر انسحبنا الى جهة الشمال وحملنا عربان الموالي على مهاجمة الفرسان الفرنسويين المتحصنين في مركز قضاء المعرة وبعد معركة دامت أربع ساعات قهرنا العدو وغنمنا منه ٣٥ رأساً من الخيل واثنتين وأربعين بندقية وغير ذلك وقد خسر العدو في هذه المعركة ثلاثة ضباط فرنسويين وسبعين جنديا وخسارتنا بدوي واحد . ثم أثار فوزي بك الى وقعة (الحمراء) ومحطات السكة الحديد مما لامحل لذكره هنا .

ان السبب الجوهري في فشل ثورة حماه فشلا سريعا هو احجام الزعماء الأعيان الذين تآمروا على تنفيذها فلما ظهرت الى حيز الوجود اختبأوا في بيوتهم ليروا ما يكون من أمرها . فان نجحت فهم المؤسسون لها وأصحاب الشأن فيها وان فشلت فهم عنها معرضون .

ولا تخلو هذه الحركة من عبر فان الاعتماد على البدو كان في غير محله الا اذا كان الغرض من الاستعانة بهم قدح الزناد **لان تجارب هذه الثورة دلتنا بصورة عملية على أن البدو لايصلحون للحروب الدولية الثابتة** التي تتطلب صبراً بل هم أصلح ما يكون للهبات الموقتة والايهامات . لذلك قيل في الأمثال العامة (مثل

العرب بالصياح) .

على أن ذلك لايعني أبدا أن ثورة حماه لم تأت بثمرة بل على العكس كانت ثمرتها من أطيب الثمار لأنها ماهبت ريحها حتى صدمت أشرعة غاملان المنشورة في جبل الدروز فأقلعت بها عنه . وتفصيل ذلك أن الجنرال سراي على أثر هبوبها طلب نصف القوة الموجودة مع غاملان على جناح السرعة فأبى هذا وطلب إمـــا الانسحاب كاملا او البقاء كاملا . لكن الجنرال سراي أصر فاضطر هذا الى الرجوع عن الجبل بقضه وقضيضه .

ثم ان هذه الثورة سببت تجزئة الجيش الفرنسوي وأرغمته على اتخاذ خطة الدفاع بعـد ما كان مهاجماً ومكنت الثوار فيما بعد من العمل في المرج والغوطة والدخول الى دمشق بذلك الظفر الذي كاد يقضي على فرانسـة في سورية .

معارك الغوطة التمهيدية

كانت المصادمات تجري في جوار نهر العاصي وحامـل لواء المجاهدين فيها فوزي بك القاوقجي بينما كانت المعارك تـدور في جوار بردى والبارز من بين الثوار فيها حسن الخراط وقد لعب هذا العصامي أعظم الأدوار في حروب الغوطة ودمشق .

فمن أوائل هذه المعارك وهو ما أطلق عليه الثوار اسم « وقعة الزور الاولى » ان خرج الى الغوطة بضعـــة أشخاص معروفين منهم أبو عبـده ديب الشيخ وأبو صلاح العرجا والشيخ نـديم

وغيرهم .

فالتحق بهم حسن الخراط بعد ما عاد من الجبل فألفوا عصابة قوية استمدت طعامها وعتادها من القرى القريبة ومن دمشق. فأرسلت السلطة عليها قوة من الدرك الى قرية « المليحة » بقيادة الرئيس رفيق العظمة ومعه عدد من الضباط المحليين فاشتبكت هذه القوة في « المليحة » مع الثوار فكانت النتيجة ان غنمت العصابة نحو ٢٩ حصاناً واسرت الضباط جميعاً واسفر الحال عن اندحار الدرك بعد أن تركوا قتلاهم على الحضيض . وقد كان لهذه المعركة تأثير حسن في النفوس شجع المجاهدين على دخول الشام .

معركة الشام الكبرى

لم يفضح المستعمرين امر كما فضحهم ضرب الشام فقد كانوا قبل ذلك يخفون فظائعهم بما يسدلون دونها من ستائر الكذب والتمويه فلما صار الضرب على الأوتار الدولية الحساسة على الرعايا الاجانب وقنصلياتهم ومدارسهم وكنائسهم ومنافعهم الاقتصادية - لم يعد بالامكان اخفاء الشر . وعلى ذلك فضرب الشام حادث في الدرجة الاولى من الخطورة .

وقد ادرك الثوار هذا الامر منذ الايام الاولى للثورة وعرفوا ان الحروب اذا بقيت محصورة في الاطراف استطاعت فرانسة ان تتظاهر باهمال شأن هذا الجهاد المقدس .

لا عجب ان تتواصل الرسائل بين الزعماء في اوائل الثورة لتحقيق هذه الغاية الحربية والسياسية في آن واحد . الا أن

ما فشل في اغسطوس تحقق في اليوم الثامن عشر من شهر اكتوبر بدخول الثوار عاصمة بني أمية .

دخلوها وكان عددهم على وجه التقريب كما يأتي : من المرج (٢٠٠) ومن الغوطة (١٠٠) ومن دروز الجبل (١٠٠) وعلى رأسهم نسيب بك البكري . ثم انضم اليهم من الاحياء اهل الشاغور وباب السلام بزعامة كل من حسن الخراط ومحمود سلام وابي عبده ديب الشيخ وحسن المقبعة .

بقي المجاهدون في دمشق اربعة ايام متواليات سحقوا في غضونها جميع الجنود المتحصنين في المتاريس في الشاغور والميدان واما من بقي منهم مبعثراً في المدينة وضواحيها مع من انضم اليهم من الموظفين الفرنسويين ونسائهم فقد لجأوا جميعاً الى القلعة واحتموا بابراجها .

فقد الجنرال سراي موازنته واختلط عليه الامر فلم يعد قادراً على فهم الوضعية وتقديرها بالضبط . ثم انه استشار من استشاره من الضباط الطافحين بالخيلاء العسكرية فأقروا جميعاً ضرب الشام بالمدافع من القلاع . وفي الوقت المعين فتحت هذه الآلات الجهنمية أفواهها وصبت على اثن حي من الاحياء حممها فلم يمض اربع وعشرون ساعة الا وقنابل التحريق والتدمير قد اكلت ما يربو على ستمائة دار من احسن الدور تقدر قيمة كل واحدة منها الوسطية بالفي جنيه على اقل تقدير . ناهيك بما اتاه الجنود من السلب والنهب بصورة لم يعهد لها في القرون الحاضرة مثيل . فقد كانوا يكسرون ابواب الحوانيت والمخازن الطافحة بالبضائع

النفيسة وينقلون ما فيها ويطرقون البيوت المتطرفة ويحملون متاعها واوانيها الثمينة حتى امتلأت بيوت الضباط الفرنسويين برياش الدماشقة .

ومما هو جدير بالذكر ان بعض المجاهدين وعلى رأسهم حسن المقيمة اخذوا يومئذ خبراً بان الجنرال سراي قدم الى دمشق لزيارة قصر بني العظم في البزورية فقرروا اختطافه ، لذلك دخلوا المدينة من جهة « الشاغور » وواصلوا سيرهم في الشوارع حتى بلغوا القصر ، ولكن الجنرال كان قد فرّ منه على جناح السرعة ولم يبق فيه الا بعض الجنود الفرنسويين فأخذوا يطلقون النار على المجاهدين فقابلهم هؤلاء وجرت ملحمة عظيمة اشتعلت النار في آخرها في القصر ، ومما يسجل بالفخر انصراف المجاهدين الى الدفاع عن الآثار الموجودة فيه ، في حين كان الجنود المحصورون يطلقون النار على كل من رأوه ، واخيراً اصابوا حسن المقيمة نفسه فخر صريعاً بجانب الباب بعد ما اظهر من فنون البسالة ما لا تنساه الأبناء والأحفاد .

وقد حاولت الدولة المحتلة ان تظهر هذه الثورة الوطنية القومية بمظهر التعصب الديني الذميم ، وربما ارادت بتركها « باب توما » و « الباب الشرقي » حيث يقطن المسيحيون من غير قوة مدافعة ان تلمح للثوار بمهاجمتها لتملأ الدنيا باخبار تعدي المسلمين على النصارى . لكن سهمها طاش ودسيستها عادت عليها بالعار . قال مراسل (فرانكفورت غازت) يومئذ : « ان الاحياء المسيحية التي تخلى عنها الفرنسويون في دمشق قد سلمت من النهب بفضل

زعماء المسلمين . ويجب على فرنسا ان تعلم الآن بان سورية اليوم هي غير سورية المعروفة بتعدد منازعاتها الدينية وان الوطنية السورية حلت محل الطائفية وقامت تطالب بحقها المهضوم ».

وجاء في البرقيات العمومية : « ان الشائع ان الثوار لم يقوموا بما يؤاخذون عليه ، بل ان حسن الخراط زار محلات المسيحيين وهدأ روعهم قائلاً لهم : (انكم اخواننا) ».

وقد شهد التقرير القنصلي المشترك الذي وضعه القناصل في دمشق مثل هذه الشهادة ، وقرع الفرنسويين على ضربهم البلد من غير انذار وتركهم احياء المسيحيين تحت رحمة الثوار ، وذكرت كيف قام المسلمون بحماية اخوانهم في الوطن .

وتساءلت جريدة الجرنال الفرنسوية قائلة : « هل كان صحيحاً ما اذاعته الصحف الانكليزية عن الجنرال سراي بانه اهمل العمل بقوانين الدول وهي تبليغ القناصل في دمشق قبل اطلاق المدافع على المدينة وانذار النساء والاطفال بمغادرتها وعليه تقرر ان هذا الاهمال قد حمل القناصل هنـــاك على الاحتجاج بواسطة اقدم واحد بينهم . »

وقد استمر اطلاق المدافع من منتصف يوم الاحد الى مساء الثلاثاء ولا يعرف عدد الذين قتلوا تحت الانقاض بالضبط وتقدر الخسائر المادية التي خسرتها المدينة بثلاثة ملايين جنيه . وكان عدد القتلى من المجاهدين قليلا لكن سيارات الفرنسويين المملوءة بجثث الجنود كانت كثيرة .

ولما رأى الثوار الرعب الذي استولى على النساء والأطفال من

مواصلة القنابل على الأحياء وتحليق الطيارات في الماء وضربها البيوت من غير تعيين غادروا المدينة على أمل النزول في البساتين في جوارها .

وقد كان لهجومهم على دمشق أثر محمود في الجبل اذ شعر « بنو معروف » بأخوة حقيقية تربطهم بسكان الغوطة وان العبء الذي كان منيخاً على الجنوب سيتوزع على المناطق الشمالية .

معارك الغوطة

ان ضبط المعارك التي حدثت في الغوطة منذ غادر الثوار دمشق حتى احتلال المقرن الجنوبي في جبل الدروز هي مما لا تسعه هذه الخلاصة . وحسبنا القول هنا إن الثورة في الشمال ولا سيما في منطقة دمشق لم تلق الرعب في قلب الخصم فقط وتظهر فظاعته الملأ وتوحشه بل قد دفعت تيار الجيش عن الجبل فأراحته من الحروب نحو سبعة أشهر تمكن الدروز في خلالها من جمع شملهم والاشتراك مع جيرانهم في مقاومة المستعمرين . ويحسن بنا ان نشير فيما يلي الى بعض المعارك المهمة التي جرت في الغوطة وضواحيها في تلك الفترة . وربما بلغ عدد جميع المعارك المهمة يومئذ الخمسين .

معركة الزور الثانية

حدثت هذه المعركة في السابع عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٢٥

وكان عدد المجاهدين اثنين وثمانين فارساً وقـــد بلغهم أن الحرب قائمة في الزور بالقرب من قرية المليحة فتقدموا اليه ، وهنا جرت معركة حامية الوطيس جداً . قال سعيد بك العاص البطل الكبير: أتت الطيارة لكشف مواقعنا فخاف الفرسان على خيلهم فربطوها في قرية (البلاط) ، وأنا بقيت ومعي فرحان شرف وسلمان بك ويوسف بك والملازم خير الدين الطيار ثم لحقنا بضعة رجال من البدو ليس معهم سلاح . وقـد أمسكنا الطريق الموجود غرب (العبّارة) وسرنا في طريق المليحة مسافة ثلاثمـــائة متر حيث « متوسنا » وصادمنـا العدو حتى قرب الغروب اذ نفـد عتادنا فاضطررنا الى الانسحاب وانسحب هو أيضاً ، ولكن محمد بك عز الدين لاقاه في جوار طريق جرمانه وضربه ضربا مبرحاً حتى أدخله دمشق . وكانت خسائرنا فرحان بك شرف — البطل المغوار — وجريح اسمه أبو علي طوبرش .

أما قتلاهم وجرحاهم فقـد ملأوا أربع عشرة سيـارة بشهادة عبد الحميد النابلسي أحد رجال جيشهم . وأسباب هذه المعركة ان الفرنسويين خرجوا لحصار الخراط وعصابته في الزور ، وعدد أفراد هذه العصابة نحو ٩٠ رجلا ، وقد أبلوا خير البـلاء وأظهر حسن الخراط منتهى الشجاعة حتى جرح في كتفه . وكذلك أبرز السيد منير الريس إقداماً عجيباً .

ويمكننا الدلالة على كذب العدو ان نشير الى بلاغاته الرسمية ، فقد قال عن هذه المعركة « دامت الحرب في المليحة ست ساعات خسر الثوار فيها مائة وخمسين وخسرنا خمسة أشخاص فقط » !!!

حسن الخراط

لم يكونوا كثيرين الذين اشتهروا في هذه الثورة اشتهار حسن الخراط ؛ وهذا بحق ، لان معرفتنا بالرجل واحاطتنا بالأحوال التي اكتنفته دلتنا بأجلى بيان على انه من أرباب القيمة الشخصية . وما ذكرته قط الا وقلت في نفسي كم رجل كان يظهر في سورية ويكتب له التفوق والبروز لو تمهدت له الفرص السانحة ولم يقضبه منجل التسوية العمومية .

لقد اختلف العلماء من قبل فزعم بعضهم أن أصحاب القيم الثمينة ان تحول دون بروزهم الحوائل ، وقال آخرون تبقى القيمة مستترة الى ان توضع في البيئة الصالحة وتتمتع بالفرصة السانحة فتنمو . وعندي أن سيرة حسن الخراط ومن حذا حذوه من المجاهدين العصاميين من أفراد الطبقة الشعبية العامة أمثال أبي محيي الدين شعبان تؤيد هذا القول ؛ اذ لولا الثورة ما برزت لهم صفات يمتازون بها وأنوار يتلألأون بأشعتها . وانني أظن أن مثل هذا الخير لا يندر في الطبقة التي ندعوها عادة «طبقة القبضيات» .

رأيت حسن الخراط لأول مرة في هذه الثورة في قرية (أم ضبيب) من قرى جبل الدروز في اوائل شهر ايلول سنة ١٩٢٥ فاذا هو رجل ربعة في نحو الخمسين من العمر بوجه مستطيل وجبهة بارزة وعينين شهلاوين يشتعلان ذكاء ورأس اصلع قد وخط الشيب شاربيه ورأسه ، والخفة ظاهرة كل الظهور في حركاته . ولعل ذلك ناشىء من تمرنه على ضرب العصي (الشوم) . وهو يعتم

بالعمة الاغباني ويلبس القنباز وفوقه العباء . وكان أمياً لم يفسد التعليم المدرسي كما يقول احد الأدباء غرائزه الطبيعية . وقد صرف شطراً من حياته حارساً في الأسواق وناطوراً في البساتين . ولا شك ان البـــاعث الأكبر الذي بعثه على الالتحاق بالثورة هو الوطنية الصحيحة . وقد حضر معارك متعددة امتاز في جميعهـا ، منها معركة الزور الأولى كما قدمنا ، والثانية ، ثم وقعة النبك الكبرى التي سيرد ذكرها ومعركة الشام ، وكان كلفاً بمهاجمـــة الشاغور وضرب مخفر « الشيخ حسن » . واشتهر عنه انه لم يقعد في متراس ولا احتمى بشجرة بل كان يحارب الاعداء واقفاً على ابعاد قد لا تتجاوز مائة متر . وقد ذكر لي احد من رآه في وقعة الزور الثانية انه كان يصيح في وجه الاعداء وينادي : « **لا تفتشوا عني في بيوت الشام بـــل امام استحكاماتكم ، انا حسن الخراط** » . وقد ظهرت عليه ميزات التنظيم والقيـــادة بحيث كانت عصابته مترابطة تأتمر بامره وتنتهي بنواهيه ، وكان اشتراكي المبدأ لو تناول تفاحة لعض منها عضة واحدة وفرّق ما بقي منهـــا على اخوانه . على انه كان بطاشاً بالخونة لا يرحمهم وقد علق بعضاً منهم على ابواب دمشق .

وحدث له انه حارب في احد الايام الفرنسويين في « معمل الزجاج » فضربهم بحيلة حربية ضربة مزقتهم ، فتمكن من الدخول إلى المعمل واخذ جميع السلاح الذي فيه مع العتاد ، وفرّق ذلك كله على اخوانه فكان لهم خير ذخيرة استعملوها اشهراً متواصلة . وقد جرح في كتفه في معركة الزور الثانية التي وقعت في ١٨

تشرين الاول سنة ١٩٢٥ وقضى نحبه غدراً على ايدي اثنين من الشراكسة المختبئين، وذلك في وقعة يلده في الحادي والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٢٥ .

وما أشدت بذكره على هذه الصورة الا لاظهر القوى المستكينة المستترة في امتنا ولأقدم للقراء مثالأواحداً من امثلة كثيرة رأيناها في هذه الثورة المباركة .

معركة يلده وببيله في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٥

من اهم المعارك التي حدثت في الغوطة بعد ضرب الشام معركة يلده وببيله فانها القت الرعب في قلب الجيوش المستعمرة وشلت حركاتها وحملت قيادتها على اتخاذ خطة المخافر الثابتة تأييداً للمهاجمات الفجائية المتكررة . اما خطة المجاهدين فكانت طيلة تلك المدة وما بعدها اتخاذ الدفاع أمام هجمات العدو من جهة وارسال قوى اخرى لتطويقه من جهة اخرى . وبهذه الوسيلة كانوا يمزقونه شر ممزق ويفرقون بينه وبين نقلياته وذخائره ويكرهونه على الانسحاب .

وخلاصة هذه المعركة الباهرة أن نزيه بك المؤيد العظم ذهب بخمسين فارساً لقتل الخائن المعروف سليم المفتي وهو رجل ساقط رأى ثوب الخيانة بالياً وقد قام بتأليف عصابة من المأجورين امثاله لقتال الوطنيين . ولما وصل نزيه بك الى جوار الميدان صادم الجيوش فاستدرجها بالانسحاب الى (ببيله) حيث جاءه متعب بك الاطرش من قرية (السمت) ومعه نحو ثمانين فارساً فجرت

ملحمة عظيمة بالسلاح الأبيض. وكان سعيد بك العاص وعلي بك الاطرش وعبد القادر أغا سكر ومن معه من الرجال قد سمعوا أصوات البنادق والمدافع فهبوا لمساعدة اخوانهم المجاهدين. قال سعيد بك: كان دليلنا ابو عبده سكر، وقد اشتدت الملحمة حتى اصبحنا نتصارع مع العدو بالقنابل اليدوية، فجاء لنجدتنا محمد بك عز الدين بشاته ودامت الحرب من الصباح حتى الساعة السابعة اذ تم انهزام الجيش بقضه وقضيضه.

اما غنائم المجاهدين فأحد عشر رشاشاً وعتاد لا يحصى، وقتلى العدو وجرحاه ستمائة علاوة على نحو مائة جثة بقيت في اقنية المياه. وقد بلغ الحال بالمجاهدين ان سعيد بك العاص تعقب الاعداء بنفسه حتى القشلة العزيزية في حي الميدان فقتل على بابها ضابطاً من الضباط الفرنسويين المتقدمين. ولم تتجاوز خسائرنا من قتلى وجرحى ثمانية عشر. وبقيت المدافع الضخمة تطلق قنابلها، والطيارات تلقي مقذوفاتها حتى خيم الليل.

معركة حموره في ١٧ كانون الأول سنة ١٩٢٥

حمل لواء هذه المعركة نزيه بك المؤيد وسعيد بك العاص وابو عبده سكر ومحمود ابو يحيى ومنير الريس، وقد كانت مصادمة وجهاً الى وجه في داخل القرية — حموره —. واظهر فيها هؤلاء الرجال الافذاذ بطولة نادرة. وكاد السيد منير الريس يقبض عليه لو لم تسلمه ثيابه العسكرية. وقد نفد عتاد المجاهدين في آخرها ولو لم يتداركهم نزيه بك المؤيد والمرحوم محمد علي الدروبي

واخوان لهم آخرون لشنع الفرنسويون أكثر مما فعلوا . على ان هذه الوقعة ستبقى شهيرة في تاريخ الاستعمار الغربي في الشرق بكثرة جرائمها فقد سطا فيها الجيش الفرنسوي على الاعراض وقتــــل الفلاحين العزل من السلاح شر قتلة ثم احرق اكوام القنب بمن فيها من النساء والاطفال وهدم البيوت على رؤوس اصحابها . وقد شهد معظم هذه الجرائم بنفسه السيد منير الريس وهو مختبىء في أحد الحقول التي لم تصلها النيران . وكان عدد القتلى من هؤلاء الابرياء نساء ورجالا اثنين وعشرين عدا الأطفال ، واما خسائر الجند فبلغت اثنين وستين قتيلا .

ومما هو حري بالتدوين ان هـــذه المعركة وقعت عرضاً بالنسبة الى المجاهدين ، فانهم كانوا قادمين لاغاثـــة قرية جوبر من الجيوش الـــتي أحاطت بهـا في صباح ذلك اليوم ؛ وهذه القرية والحق يقال فعلت الأعاجيب في معارك الغوطة ، ولما اشتدت وطأة الشتاء ووزعت قيادة الجيش الفرنسوي المخافر على القرى الآتية : دوما واوتايه وخرابو والشيفونية سكنت العاصفة في الغوطة ولم يبق للحوادث من أثر يذكر الا ما تعلق بقتل المرحوم حسن الخراط اغتيالاً من قبل الشركس في قرية يلدا في ٢١ كانون الأول سنة ١٩٢٥ . وقتل الكولونيل فرن في وقعة الشيفونية المهيبة وقد أخفى الفرنسويون قتله سبعة أشهر وكان بطل هذه المعركة الظافرة الشهيـد العربي الحر شوكة بك العائدي .

وسبب هـــذا السكون ان محمد بك عز الدين الحلبي البطل المعروف ومن معه من الدروز الموجودين في الغوطة من جهـــة

والقسم الأكبر من مجاهدي الغوطة أنفسهم من جهة أخرى غادروا هذه المنطقة الى جبل الدروز وانسحب سعيد بك العاص ومن معه من الرجال الى النبك وجهات الشمال وتبعهم على الاعقاب فوزي بك القاوقجي ورجاله من الجبل ولم يبق في منطقة الشام غير نزيه بك المؤيد ومعه أبو عبـــده عكر وزكي بك الحلبي والدوخباني والمهايني وغيرهم ، وقد كان استمرارهم على العمل في هذه المنطقة بعد ما غادرها من غادرها من الرجال حسكة في حلوق قواد الجيش الفرنسوي وآية في الجرأة وتحمل الواجب تسطر لهم جميعاً ولا سيما لنزيه بك البطل الممتاز بمداد الشكر. وعندي ان **هذه الصفحة من ابرق الصفحات في تاريخ الثورة المباركة** خصوصاً بعد ما جاءتنا التقارير المطولة من الاخصائيين طافحة بالتشاؤم مملوءة بالتذمر.

قال نزيه بك في احدى رسائله « صممنا على القيام بأعمال فجائية شديدة تقلق السلطة أكثر من غيرها فابتدأنا بمهاجمة الخطوط الحديدية وفي مدة يومين فقط قطعنا خطي شام - درعا وشام بيروت ومكثنا نحو سبعة أيام على خط بيروت كسرنا في غضونها حملتين فرنسويتين شر كسرة ، ثم بالنظر الى قلة طعامنا وفقد العلف لخيلنا عدنا الى الغوطة وهنا نظمنا شؤوننا واستدعينا الأهلين الى الجهاد فحملوا السلاح معنا فكان نصيب كل قرية من المجندين عدداً معيناً مع سلاح وعتاد. وحدث في تلك المدة رجوع ابي عبده ديب الشيخ من الجبل فساعدنا بهذا العمل مساعدة تذكر فتشكر ؛ واخذت جموعنا تزدادزيادة مضطردة الى ان بلغت بضعة آلاف وهذا مكننا من تجهيز الحملات الى القلمون والاقليم لشد أزر اخواننا فيها » .

ولنترك الآن حديث الغوطة مؤقتاً لمدة الشتاء ولنشكر نزيه بك واخوانه على إحيائهم هذه المنطقة بعد ما كاد القنوط يتسرب الى القلوب من انعاشها ولنلق نظرة على حوادث النبك وما اليهـا من القرى .

معركة النبك الكبرى

(١٤ و ١٥ آذار سنة ١٩٢٦)

حصلت في النبك قبل هذه المعركة العظيمة معارك عديدة في شهر تشرين الأول سنة ١٩٢٥ والفائزون فيها هم العصابات الأربـع التي تجمعت في تلك الارجاء يومئذ - عصابة جبل قلمون وعصابة النبك وعصابة عكاشه وعصابة حسن الخراط . وفي احداها أرسل العدو مائة جندي مع ست سيارات كبيرة مصفحة بقيادة ضباط الدرك فصادمهم المجاهدون في البساتين وعددهم لايتجاوز الخمسة والعشرين وأسروا منهم الضابط بهيجاً وغنموا أربعة رشاشات كبيرة ورشاشين صغيرين وعدداً من سيارات الركوب .

أما معركة النبك الكبرى فحدثت بعـــد ذلك ببضعة أشهر وتفصيل خبرها أن الزعماء الكبار وعلى رأسهم سعيد بك العاص وفوزي بك القاوقجي قرروا اتخاذ (النبك) مركزاً للثورة في جبل قلمون بعدما خمدت فيه النار من جراء الفوضى والمعاملات الشاذة التي عومل بها . وغني عن البيان أن مثل هذا المركز اذا اشتد

ساعده تناول حمص وحماه بالتهديد الدائم ، لذلك جهز العدو في حمص حملة كبيرة بقيادة الجنرال (مارتي) الذي اشتهر من بين القواد الفرنسويين بالحروب الجبلية وقوامها اربعة آلاف جندي من المشاة والفا جندي من الفرسان وثمانية مدافع ومثلها مصفحات واعتاد اخرى كاملة منها سبعون رشاشاً .

وكتب الي فوزي بك يقول : « اما نحن فلم نجد متسعاً من الوقت لاتمام ترتيباتنا ، بيد اننا تمكنا من جمع ثمانمائة مقاتل من انحاء القلمون وقررنا ان ندافع عن (النبك) اولاً في جهات (قارة) شمالاً ثم في (النبك) نفسها وذلك لاستكشف قوته واضربه في مضيق (عيون العلق) ضربة مادية تؤثر في معنوياته ولا توصله الى (النبك) الا منهوك القوى » .

وفي اليوم الحادي عشر من مارس دخل المجاهدون المشاة (قارة) والفرسان (دير عطية) لاحاطة جناح العدو الايسر ، وفي اليوم الثاني عشر اعدوا له العدة اللازمة في مضيق (عيون العلق) وقابلوه فكان في الخط الامامي سعيد بك العاص وفوزي بك القاوقجي ومعهما نحو ١٥ مجاهداً . ولكنهم لم يطلقوا نارهم من عقالها الا بعد ان استبانت لهم ملامح العدو واصبحوا منه قاب قوسين او أدنى فصمدوا له كالراسيات وتمكنوا من صد تياره ساعتين ونصف ساعة ، رغم أنف المصفحات التي كانت تقذف حممها مثل البراكين الثائرة - والمدافع التي كانت تفتت الصخر وتحصد الارض - ولكن المفرقعات بأيدي المجاهدين والقلوب في صدورهم كانت اشد بأساً .

ونظراً لتأخر النجدة وقلة العدد الذي انضم الى رجال الصف الاول وكثرة الاعداء الذين تألبوا على المجاهدين من كل حدب وصوب فقد أمر فوزي بك وسعيد بك الاخوان بالانسحاب فانسحبوا بمعجزة غريبة عملتها ستائر الضباب التي انسدلت عليهم في تلك الساعة من السماء !

ومن هناك انسحبوا الى النبك حيث التقوا بالجيش فأصلوه ناراً حامية من وراء استحكامات احكموا بناءها على الفن الحديث بحيث يستطيع كل واحد منها ان يدافع بنيرانه عن الاستحكامات الاخرى . وقد ابتدأت المعركة في ضحى اليوم الرابـــع عشر من مارس ولم تنته الا بعد العصر اذ تمكن العدو من احتلال المستشفى الهولندي غرب البلد . لكن المجاهدين اعادوا الكرة فهاجموا المستشفى واحتلوه عنوة بعدما اخترقوا صفوف الفرنسويين وهزموهم شر هزيمة وهكذا استعادوا جميع ما اضاعوه بثلاث هجمات متواليات وربحوا خيلًا وسلاحاً وعتاداً وافراً وخربوا مصفحتين ، وكانت الخسائر بصفوفه عظيمة ظهر تأثيرها عند المساء اذ انقلب مدافعاً وقد ضعفت ناره وكثر الفراغ فيه . الا ان مواصلة القتال افقدت المجاهدين العتاد الذي ربحوه فاضطروا الى الانسحاب ، ومع ان بعضهم بقي محتلًا الروابي المحيطة بالبلدة حتى ١٥ مارس ، الا ان الوضعية تطلبت انسحابه ايضاً ، وهكذا نرى العدو الذي كان عازماً على الانسحاب نهائياً قد عاد الى احتلال البلدة من جديد بعدما رأى جلاء المجاهدين عنها .

وقد اتفق الزعماء الفنيون على ان معركة النبك هذه هي من

اكبر معارك القلمون التي ظهر فيها تفوق الثائر بنظامه واستبساله.

وكانت خسائر المجاهدين في عيون العلق ١٨ قتيلاً ، اشهرهم فؤاد رسلان من حمص والملازم ابراهيم صدقي من دمشق .

اما خسائر العدو فقد قال سعيد بك العاص عنها انها في اليوم الاول بلغت ثلاثة ارباع مدفعيته وفي اليوم الثاني زهاء اربعمائة قتيل .

وأبطال المعركة سعيد بك العاص ، وفوزي بك القاوقجي ومن الزعماء المرحوم احمد منلا الكردي ، وأبو مصطفى الحرستاني وأبو شريف شرف ، والقائمقام زكي الحلبي ، والملازم خير الدين الىابيدي الطيار ، ومنير الريس ، وجميل العلواني واخوانهم .

ومما هو حري بالتدوين ان اهل النبك حاربوا في اليوم الثاني حرباً صلباً اذ انهم كانوا لا يدافعون عن الوطن فقط بل عنه وعن الاعراض التي كان يتهددها جيش المدنية الحديثة !

معارك الاقليم الكبرى

بينما كانت المعارك تدور في الغوطة وفي القلمون كان الاقليم شعلة نار يضرمها صيّاح الحمود وزيد الاطرش ونزيه المؤيد وفضل الله الاطرش وحمزه الدرويش وعلي عامر واسعد كنج وشكيب وهاب وأسد الاطرش ومتعب الأطرش والبطل الكبير المرحوم فؤاد سليم والامير حسن الأطرش وغيرهم من الأبطال الذين لا تتسع هذه الصحف لذكر اسمائهم . ويجوز لنا بالاجمال ان نذكر ان هذه المعارك

العظمى ابتدأت في اوائل تشرين الثاني سنة ١٩٢٥ يوم كنت عائداً من جهات الجنوب وانتهت في اواخر كانون الثاني سنة ١٩٢٦ يوم كنت ذاهباً الى جهات الشرق العربي في مهمة سياسية .

اخذ المجاهدون من جميع الجهات يتجمعون في المقرن الشمالي في أواخر تشرين الاول ثم ساروا الى جهات الغرب فانشطروا شطرين الشطر الاول احتل اقليم البلان فاتخذ قصبة المجدل مركزاً له وكان بقيادة زيد بك الاطرش وكانت الغاية من احتلال الاقليم اولاً المحافظة على الاهلين من تعديات الفرنسويين بناء على الدعوة التي حملها الى زعماء الثورة أهل المجدل أنفسهم في قرية « كفر اللحا » في أواخر أغسطوس كما تقدم معنا و (ثانياً) استمالة الشركس ومفاوضة الامير محمود الفاعور للانضمام الى الثورة .

واما الشطر الثاني فقد سافر من المجدل الى حاصبيا فاحتلها دون أقل مقاومة حربية لأن قائد الحامية الفرنسوية علم بقدوم الثوار اليها وشعر بضعف قوتـه أمامهم فعرض امره على الشيخ حسين قيس كبير شيوخ البياضة راجياً منه ان يتوسط في الامور وينجيه هو وحاميته من ايدي الثوار فلبى حضرة الشيخ طلبـه وأرسله مع القوة التي كان يقودها الى (النبطية) ففازوا جميعاً بأرواحهم ودخل الثوار بقيادة حمزه الدرويش ونزيه المؤيد العظم وأسعد الاطرش وشكيب وهاب وغيرهم من الزعماء البلدة بين أناشيد الرجال واغاني النساء .

بقي الثوار في حاصبيا اياماً تتوارد عليهم وجوه قضاءي حاصبيا وراشيا وأقاموا حفلة فخمة في قصر الحكومة حضرتها جموع غفيرة

فخطب فيهم نزيه المؤيد وصبري البديوي الباسل خطبا حماسية وحثا الناس على الانضمام الى الثورة وبينا مقاصدها الحقيقية وبالفعل أخذت أهالي القرى تظهر خضوعها وتحكم انضمامها الى الثائرين يوما فيوما. وحدث أن وفداً من مسلمي « جديدة مرجعيون » ومسيحييها عرض خضوعه وطلب الى القواد ان يحتلوا « الجديدة » حالاً لأن العدو أخلاها فسار المجاهدون اليها وعددهم بضعة آلاف وصادف حمزه الدرويش في طريقه سيارة فركبها مع ستة اشخاص من دروز حاصبيا وعندما وصل الى مفرق الطريق الموصلة الى قرية (كوكبة) اعترضه وفد من اهالي هذه القرية برئاسة خوري فدعاه الى تناول الغداء في القرية فلبى حمزه الدرويش الدعوة غير ان اهالي (كوكبة) كانوا منشقين شقين منهم قسم موال للسلطة الفرنسوية وقد امدته بالسلاح والعتاد ووسوست له ان يقاوم الثوار والقسم الثاني كان مواليا للثوار وهو الذي دعاهم الى تناول الطعام ، ولما وصل حمزه الدرويش الى القرية قابله القسم المعادي من الاستحكامات بالرصاص فخر ثلاثة اشخاص من رجاله قتلى فنادى حمزه بأعلى صوته : ياقوم لا تطلقوا علينا الرصاص لأننا ما اتينا هذه البلاد لمحاربتكم بل لمحاربة الفرنسويين المستعمرين واني اقسم لكم بشرف الدروز وشرف هذه الثورة المباركة اننا لا نمسكم بسوء واننا نعتبر هؤلاء القتلى فداء عن الوطن ، فكفوا عن الرمي وتأكدوا اذا اردتم مقاومتنا انكم لخاسرون . فلم يلبوا طلبه بل داوموا على اطلاق النار على حمزه وعلى الجموع القادمة فهاجت تلك الجموع وماجت كالبحر الزاخر وهاجمت القرية وبأقل من نصف ساعة غدت القرية

أثراً بعد عين وقتل من الاهلين عدد عظيم من جملتهم الحوري وكان قتله برصاص اهل قريته . ثم عاد الثوار ابغنائمهم الى (حاصبيا) وبعد بضعة أيام سارت قوة كبيرة بقيادة حمزه الدرويش ونزيه المؤيد العظم قاصدة (الجديدة) ولما وصلت الى مفرق طريق (ابل السقي) التي تبعد عن الجديدة نحو نصف ساعة اعترضها اهالي القرية ومعظمهم من المسيحيين ودعوها الى تناول الطعام في القرية فلبت الدعوة وباتت تلك الليلة فيها وفي اثنا السهرة قدم احـــد شيوخ القرية يحمل كتاباً مرسلًا من (بطرس كرم) الى زعماء الثوار وكله شتائم ووعيد وتهديد وبطرس كرم هذا هو أحـــد اللبنانيين المتفرنسين جلبته السلطة الفرنسوية لمرجعيون على رأس عصابة من المتعصبين لتكسب الثورة صبغة دينية فلم تجز هذه الحيلة على الزعماء بل انهم في الحال قرروا عدم التعرض (لجـــديدة مرجعيون) وكتبوا كتاباً لطيفاً الى بطرس كرم يفهمونه فيه ان الثورة ليست ثورة دينية وان الثوار لا يرغبون في قتـــال المسيحيين وانهم سيغادرون (ابل السقي) ولا يتعرضون للجديدة كيلا تكسب الثورة الصورة الدينية التي يتطلبها الفرنسويون ؛ وبعد ارسال هـــذا الكتاب الى (بطرس كرم) عادوا الى (حاصبيا) فوجدوا (زيد الاطرش) وسائر الزعماء قد قدموا اليها من الاقليم مع قواتهم فقصوا عليهم حقيقة الموقف فوافق الجميع على عدم التعرض لجديدة (مرجعيون) واتصل هذا الخبر ببطرس كرم فتوهم أن الثوار يخشون بأسه فتحرك فيه حس الانتقـــام وأرسل قوة الى (برغز) وهي مزرعة درزية صغيرة

تخص (آل شمس) لكي تحرقهـا فكمن لها شكيب وهاب ، ولما وصلت طليعتها المؤلفة من ستة عشر مقاتلاً الى قرب القرية قبض عليهم شكيب وهاب واخذ سلاحهم واطلق سراحهم قائلاً لهم : « يا اخواني اذهبوا وبلغوا جميع اخواننا المسيحيين اننا لا نريد بهم شراً واننا لا نرغب في محاربتهم بل نود مقاتلة الفرنسويين ». فذهبوا الى اخوانهم وقصوا عليهم الخبر فلم يرجعوا عن غيهم بل هاجموا القرية فقابلهم شكيب وهاب ومن معه بالرصاص ، وفي الحال اتصل الخبر بزعماء الثوار في حاصبيا فامتطوا ظهور خيولهم واقبلوا على (برغز) بسرعة هائلة فلما رآهم (بطرس كرم) وقومه ولوا الادبار الى (جديدة مرجعيون) وانضموا الى الحامية الفرنسوية التي وصلت اليها حديثا وتحصنوا في الزور والاستحكامات فتبعهم الثوار ودار بينهم قتال عنيف دام نحو سبع ساعات وانتهى بنصر المجاهدين وانخذال العدو وفراره الى (صيدا) ولم يقتفِ الثوار اثر المنهزمين لأنهم دخلوا حدود لبنان الصغير الذي قرر الثوار عدم التعرض له ، وعليه اكتفوا بنسف جسر (الخردلة) وعادوا بعد ذلك الى مقرهم في (حاصبيا) ، وقد اشترك في هذه المعركة قسم كبير من أهل (العرقوب) وفريق من عرب « الامير محمود الفاعور » .

ولما عاد الثوار الى (حاصبيا) علموا ان معركة قوية وقعت بين دروز (راشيا) وبين حاميتها ، فهرع قسم منهم بقيادة حمزة الدرويش ونزيه المظم واسد الاطرش وغيرهم من الزعماء الى راشيا فتحصنت الحامية في قلعة « آل شهاب » وتحصن معها

معظم مسيحيي القرية ولما ابصروا جموع الثوار قادمة نحوهم قابلوها بالرصاص فهجمت الجموع واحتلت القرية وبقي الجند متحصناً في القلعة ودام الحال على هذا المنوال بضعة ايام واخيراً قرّر الثوار مهاجمة القلعة فانقسموا الى اربع فرق واحاطوا بالقلعة من جميع اطرافها وعهدوا الى (نزيه بك العظم) بدخولها فقام بمهمته احسن قيام وتمكن من الوصول الى اسفل سورهـا بواسطة خرق جدران الدور الموصلة اليها ووضعت السلالم على السور فتسلقها الثوار ودخلوا القلعة عنوة ببطولة تفوق الوصف ، واحرقوا قسما كبيراً منها وقتلوا عدداً عظيما من المحاصرين الذين لم يفروا أو لم يختبئوا في الأقبية الأرضية والذين حال الليل دون الوصول اليهم وقد استسلم اليهم كثير من المسيحيين فلم يمسوهم بسوء بل أطلقوا سراحهم حالاً بعد ما استولوا على اسلحتهم . وفي الصباح أتت نجدات كبيرة من الجند مجهزة بالمدافع والدبابات والمصفحات ثم حلقت أسراب الطيارات فألقت على الثوار مقادير عظيمة من المفرقعات مما اضطرهم الى ترك البلد والاعتصام بالجبال حينئذ دخل الجنود القرية فقتلوا جميع من وجدوهم فيها من الشيوخ العجز والجرحى والاطفال والنساء وفي مقدمة الجميع كان الشيخ نعمان احد شيوخ العقل ثم زوجه واطفاله فانهم جميعاً ذبحوا ذبح الشاة .

هذه خلاصة مختصرة لمعارك الاقليم الكبرى ذكرتها بصورة اجمالية ، ولما كنت عازما في اواخر ايام تلك المعارك على زيارة المناطق الجنوبية لتنفيذ بعض المهام السياسية سمعت في دار الوطني

الكبير والبطل الشهير المرحوم فضل الله باشا هنيدي زعيم قرية (الجدل) خبراً قضت له المضاجع وفكت له الحبى ألا وهو خبر **مصرع المجاهد الممتاز والهوذعي المفادي المرحوم فؤاد سليم .**

ان أنس لا أنسى قدوم هذا البطل الى الجبل متطوعا في اواسط شهر ايلول سنة ١٩٢٥ بعد ما اقتحم الاخطار وخاض المناطق المحظور عليه المرور فيها فكان اول من رأيته في الجبل من القادمين من المناطق الاخرى بعد اخواننا .

قص علي يومئذ كيف استطاع اقتحام صحراء التيه والمرور من فلسطين وشرق الاردن مع كثرة العيون والارصاد وحرص السلطات المتنوعة على منع المتطوعين من الالتحاق بالثورة فشكرت له مساعيه وقدرت له وطنيته ثم رأيته ملازما للقيادة العامة يتحمل وعث الاسفار وشقاء المعيشة غير حريص على التفوق بل جعل نفسه داعية واداة منفذة .

ان هذا الانجاء وراءه شخصية باهرة وشجاعة نادرة وعقل راجح وهو الذي كلف بنشر الرسائل الوطنية البليغة في الاقاليم باسم القيادة العامة وبعنوان « الدين لله والوطن للجميع » وافاه اجله من قنبلة اصابته عرضا وعفواً في احدى الطرق في الاقليم فخر صريعا يتخبط بدمه وبعد فقده ابتداء تراجع الثورة في تلك الانحاء .

ان اسم فؤاد سليم هو من الاسماء التي ستوضع في اوائل أسماء المرشحين لنيل الاولوية في جهاد الميدان من بعد القائد العام وهو ولا شك مقرون دائماً بالفحول أمثال حمد البربور

وفوزي القاوقجي وفضل الله هنيدي ونزيه المؤيـــد وصباح الحمود وزيد الاطرش وسعيد العاص وشوكة العائدي ومحمد عامر وشكيب وهاب وعبـــد القادر سكر وابي يحيي الدين شعبان وعادل نكد وتوفيق هـــولو ونسيب الاطرش وسليمان العقباني وزين مرعي جعفر ومحمود أبو يحيى وأسعد كنج ومحمد شرف ومحمد عز الدين الحلبي وسلطان الاطرش والامير حسن الاطرش والامير عز الدين الجزائري وغيرهم من كبار الرجـال الذين لا تتسع هذه العجالة للاحاطة بهم ولذكر اسمائهم . وحسبنا أن نقول هنا أن العقل الراجح اذا انضمت اليه الشجاعـة النادرة وكان الاخلاص حلقة الوصل بينهما تمثل أمامنا بشخص شهيد الوطن فؤاد سليم .

معركة السويداء الكبرى

٢٥ نيسان سنة ١٩٢٦

بعد ما فشل غاملان في هجومه على الجبل في ايلول سنة ١٩٢٥ واضطر الى سحب جنوده الى الشمال عقيب ثورة حماه نشر على الملأ ان سبب هذا الفشل هو قلة الماء فقال ان الجيش الصغير يعجز عن اقتحام تلك البلاد والجيش اللجب يموت فيها من العطش ، ثم اخذ في ذكر الخطط التي ينوي تطبيقها سريعاً من احتلال صرخد في الجنوب وبناء القلاع في الغرب الى آخر ما هنالك من الكلام .

لكن الواقع هو ان الفرنسويين خافوا مغبة الحوادث في الشام وحمص وحماه وحلب فارسلوا جنودهم الى تلك الارجـاء سداً للذرائع خصوصاً بعد ما بدرت البوادر في الغوطة وهبت العاصفة في حماه .

ثم مرت الاشهر الطوال والجبل خـال من الجنود الا على الحدود في بصرى الشام وبصرى الحرير وزرع ، ولولا قنابل المدافع من بعض هذه القلاع وزيارة الطيارات المتوالية للقرى خصوصاً للسويداء حيث التدمير كان فظيعاً ، لقلنا ان الجبل منذ اوائل اكتوبر سنة ١٩٢٥ حتى اواخر نيسان سنة ١٩٢٦ كا في حالة سكون نسبي .

غير ان ذلك لا يعني ان المجاهدين في الجبل اخلدوا الى السكينة طيلة هذه المدة بل انهم خاضوا غمـار الموضوعات السياسية في مؤتمرات عقدوها في قنوات وعتيل وشقة ودامة عقيب دعوة المسيو دي جوفنل السلمية واحتلوا الاجاة ليهددوا السكة الحديد في حوران ويقطعوا على الفرنسويين خط الرجعة .

ومما هو حري بالتدوين ان الدعاية الجوفنيلية اثرت اثراً ظاهراً في الجبل حتى ان بعض الزعماء الكبار انتدبوا الشيخ اسمـاعيل عبد الدين من اهالي (السويداء) ليحمل كتابا الى الكومندان كوستيلير في درعا وفيه الشروط التي يطلبونها ، وقـد عاد المندوب الى السويداء في اليوم الرابع عشر من كانون الثاني ١٩٢٦ فقال قابلت كوستيلير في درعـا وعرضت عليه الرسالة فأجابني انني لا أسمح أبداً ان يكون هنالك في الجبل زعـيم

وان هذه المفاسد هي من الدكتور شهبندر وهو رجـــل فرماسون لا دين له ، والشروط الـــتي نطلبها هي ان تعيدوا جميـــع أسلحة فرنسة وتؤدوا ثمن الخيل الأميرية التي بعتموها في شرق الأردن ، وتعيدوا بناء القلعة وسائر دوائر الحكومـــة الى حالها السابق ، وتضعوا سلاحكم في محل تأمنون عليه وتأتوا خاضعين بعد اخراج الدكتور شهبندر من الجبل ولا بأس ان تجتمعوا المذاكرة ولكن على شرط ان تضعوا على صـــدر رسالتكم اشارة خضوعكم ثم توقعوا عليها - لا بصورة فردية - بل بعدد كبير من الرجال منعاً للزعامة التي تأباها فرنسة ، وكان احد كبار الرجال من الدروز موضع نقده الخاص ، وفي النهاية قال كوستيلير : « ولا بد من استدعاء جميـع العصابات التي تعبث بالأمن خارج الجبل واني لا اضمن العفو عن أحد ».

كان الدروز يوم عودة الشيخ اسماعيل عبد الدين في (شقة) المداولة في الشؤون فرأيت الفرصة سانحة لاطلاعهم على نيات الفرنسويين فارسلته اليهم قبل تفرقهم فلقيهم في اليوم الثاني وقص عليهم هذا الحديث الفظ الخالي من كل ادب وحنكة فبلغت الحماسة في رؤوسهم ذرى المفارق حتى ان فضل الله باشا هنيدي حلف يميناً غموساً انه لا يسمح لأحد من الهنيدات الذين هم على اقل اتصال بالفرنسويين بالبقاء في الجبل ومن ثم اتخذ المجتمعون قراراً بأن يذهب فرد من كل بيت معروف لقرية (ذيبين) ليحرقوا بيت فارس الاطرش (وللمجيمر) ليحرقوا بيت سليمان عبده الاطرش وهما رجلان قد خانا العشيرة وعبثا بالوطن . وقد تنفذ هذا القرار فيما

بعد . ثم انهم تحالفوا على الاستمرار على الحرب بصورة جدية .

ان هذه الخطيئة التي ارتكبها القومندان كوستيلير هي الثانية من نوعها الا اذا كان هو وحزبه من طغاة العسكرية قاصدين دوام الثورة . والخطيئة الاولى هي ما مر بنا من امتناع الجنرال سراي من مقابلة الزعماء .

وكان من نتائج هذا الخطر الفادح ان تقرر في (شقة) ايضاً ان تقدم كل قرية ربع محاربيها بالتناوب للاستمرار على الثورة وأن يشمل الحريق بيوت غير من ذكرنا امثال نجيب عامر وتركي عامر وعبد الكريم نصر . وان يكتب الى كوستيلير كتاب يليق بكلامه ويشمل مطاليب الثورة وانه مسؤول اذا لم يرفعه الى المسيو دي جوفنل . ثم تقرر تأليف لجنة لادارة الجبل وبحث قضية حملة الغوطة بقيادة فوزي بك القاوقجي بحثاً مستفيضاً . ويظهر لي أن العامل المؤثر في تصلب الفرنسويين هو (أندريا) و (غاملان) في الدرجة الأولى .

ثم اننا عقدنا في السويداء مساء الاثنين الواقع في ١٨ كانون الثاني جلسة للتفاضل بين حملة تذهب الى الغوطة أو حملة تذهب الى اللجاة وحوران فترجحت لدينا هذه بأكثرية الأصوات للاسباب الآتية : للقرب ، وخطورة النتائج ، والسرعة اللازمة ، والاستغناء عن الرواتب الضرورية لمثل حملة الغوطة . وقد ذهب المجتمعون الى أن حملة حوران اذا كتب لها النجاح تريح الغوطة وتخفف الوطأة عن سائر المناطق الشمالية .

اننا بينما كنا نسير في تنظيم الثورة على هذا النحو كان

كوستيليو يتآمر مع ظاهر القنطار وابراهيم الاطرش على اغتيالي وأول من كشف لي الغطاء عن ذلك الطامة في السويداء اذ أن لوالد صهرها ابراهيم بك الحاصباني اتصالا بالمتآمرين وقد قصت علي الحديث في اليوم التاسع عشر من كانون الثاني سنة ١٩٢٦ وذكرت مقدار المال الوافر المعروض لتنفيذ هذه المؤامرة وفيما بعد ذكر لي ابو محمد نسيب صخر ان ابراهيم الاطرش المذكور وعده بخمسمائة ذهب عثماني اذا هو استطاع ان يسهل له دخول داري ليلاً وفتح باب حجرتي فأبى .

كان همنا في تلك الايام منصرفاً الى تنظيم مناطق الثورة ووضع اسس الاتفاق بدلاً من الفوضى ومقاومة الخونة مقاومة عنيفة ، بيد انه من دواعي الاسف ان تكون عادات البيوتات والثارات في الجبل مانعة من تنفيذ القصاص الصارم في هؤلاء الاسافل . وكان من نتائج هذه المساعي كتابة عهد أمضاه مشايخ عرمان وملح وأمتان والهوية وقيصمة والحريسة وابوزريق وشعف وبهم وتل اللوز وطليلين وفيه يقسمون بأن يتحدوا (١) على الامتناع عن الشر وعلى اتيان الخير (٢) على التبرؤ من كل من يراسل العدو أو يقابله (٣) على تأديب من تثبت عليه الشبهة «بفورشه» اي بسط داره للنهب وهدر دمه (٤) على التآخي التام والتعاون اللازم في الداخل والخارج (٥) تنفيذ هذا العهد منوط بفتيان الوطن الغيورين .

وكان الاخوان في السويداء يضعون يومئذ لهؤلاء «الفتيان» قانونا يتمشون عليه .

غادرت «السويداء» في اليوم الحادي والعشرين من كانون

الثاني سنة ١٩٢٦ الاجتماع بأحد المندوبين السياسيين الوطنيين خارج مناطق الثورة في « الجنوب » فمررت على « ام الرمان » حيث التقيت باصحاب العهد يوقعونه من مشايخ هذه القرية الحرة وكان لا بد من مروري في طريقي الى جهات القدين على القرى الملاصقة ببصرى الشام حيث العدو متحصن بخيله ورجله . فتقدم « الفتيان » لحراستنا وعلى رأسهم جاد الله بك البربور فأخذوا يعدون على ظهور الصافنات الجياد أمام سيارتنا الى أن أدخلونا قريتي « صاد » و« سمج » الموحشتين ثم في قرية « طيبا » الخالية من السكان وجدنا آثار الفرنسويين وعسفهم وكيف كانوا يقطعون السبيل على المارة . هذه كانت أحوال الحدود بيننا وبين الأعداء وعلى مثل هذا الخراب كانت القرى المجاورة .

وقد لقيت في قرى جماعة « الششن » في الجنوب من حسن الوفادة وكرم الضيافة والعطف والتبرؤ من اعمال الشركس المتطوعين في خدمة المستعمرين ما يسجل لهم بمداد الفخر . ان « الششن » والحق يقال على جانب من الشعور الحي وقد ذكروا لي ان كثيراً من الجركس في بلاد القفقاس كانوا يخدمون في جيش القيصر الروسي لسحق الحركات الوطنية ، وهذا ما يتفق مع سيرتهم في الاناضول ايضاً يوم تطوعوا في خدمة اليونان المغتصبين لسحق الترك الوطنيين . ولا بد ان هذه النزعات الوطنية ستحدث ألماً جارحاً في نفوس الشاعرين منهم والعارفين بدخائل الامور .

أشرقيّ مظلوم في عرضه وماله ودينه وقوميته ووطنه يساعد

غريباً مستعمراً دينه وايمانه وغرضه الاسمى ومثله الاعلى قول تاتنبرج : « لقد ملكنا القوة فلا حاجة بنا الى برهان آخر » ؟! ومع ذلك فالاختبارات المؤلمة وانبثاق النور سيهيد هؤلاء الضالين الى حظيرة الشرف .

ومن الحوادث المؤلمة التي حدثت في غضون هذه الرحلة ان ان يجحم الشعلان ممن يدعون التدين على الطريقة الوهابيـة هاجم الازرق في ارض تدعى البقماوية صباح سفري من (السويداء) فأغار على نحو خمسين بيتاً من عرب (المساعيد)رعيان الدروزفي حين كانت البلاد من اقصاها الى اقصاهـــا تتفاءل بقرب مجيء النجدة لمساعدة المجاهدين. وقد احدث بعمله هذا تأثيراً سيئاً تلافاه الاخوان في فلسطين بالكتابة الى المراجع الايجابية .

ومما هو حري بالتدوين ، ويدل على اشتراك سكان البادية في العطف على هذه الثورة الا ما كان نادراً في شذوذه ما اخبرني « حديثه الحريشة » شيخ الحرشان ومثقال باشا شيخ الفايز من بني صخر بقولهما ان الغزوات هذه السنة كانت نادرة جداً بالنسبة الى السنين الماضية لأن البدوان حرموا على انفسهم الغارة على هذه البادية خشية ان يصادموا فيها المجاهدين او ان يسلبوهم حلالهم.

واتفق لي يوم عودتي الى السويداء من رحلتي الى الجنوب ١٢ شباط مساء ، ان الدرك قطع يدي الجـــاسوسين شفيق القزاز وصويص الشنيبلي اللذين لعبا اخطر الادوار في الخيانة بعـــد ثبوت الجرم عليهما ، فاذاع روتر وهافاس كما اذاع المسيو دي جوفنيل امام عصبة الامم فيما بعد انني انا الذي قطعت اليدين من

غير شك. مع ان التنفيذ جرى في غيبتي ولو كنت حاضراً لمنعته لا لأن الجاسوسين المذكورين لا يستحقان قطع اليد بل لأنهما يستحقان خلع الرقبة ، وقد اخطأ الدرك ومن اشار عليه بهذه الرحمة التي كانت آلة للدعاية في ايدي الفرنسويين .

وفي المنتصف الثاني من شباط تم الاتفاق بيننا وبين سلطان باشا على الزحف على اللجاة فاخذت الجموع تحتشد من كل مكان ، وفي مساء الخميس الواقع في الخامس والعشرين من الشهر المذكور عقدنا جلسة تاريخية في اللجاة في قرية (دامه) في بيت شبيب بك القنطار حضرها عدد كبير من الزعماء . سلطان باشا وعبد الغفار باشا والمرحوم الامير حمد وصياح الحمود وسلمان وفضل الله من الطرشان ومن العوامرة علي وهائل والامير عادل ارسلان وتوفيق حيدر وعلي عبيد وجابر الصغير وغيرهم لاجل البحث في الدعوة السلمية التي نشرها المسيو دي جوفنيل فتقرر ارسال جواب مؤلف من ست مواد معروفة ، الا انه كان شديد اللهجة جداً وخالياً من المرونة السياسية المطلوبة وفي ختامه طلب الجلاء عن سورية عقيب المجلس التأسيسي بشهرين والامضاء : « الشعب الدرزي » وهذا خطأ فادح ايضاً .

اطلع المسيو دي جوفنيل على هذا الجواب فنشر في الصحف بياناً مختصراً اشد منه ذكر فيه ان لا سلم ولا مفاوضة الا بعد ان يخضع الثوار ويلقوا سلاحهم ، وبعد قرار مؤتمر دامه هذا وبيان دي جوفنيل عليه طوراً جديداً في تاريخ الثورة السورية انقطعت من بعده الوسائل السلمية ولم يعد امام سورية للوصول

الى حقها المغصوب الا الاستمرار على الحرب .

هل كان في الامكان لولا قرار «دامه» بأترى الوصول بالمفاوض الى حل سلمي ، وهل كان دي جوفنيل صادقاً في اظهـــار ميوله الصلحية ومؤمناً بالبيانات التي نشرتها الصحف عنه يوم كان قادماً الى سورية ؟ وهل ثبت فيما بعد انه كان قبيل تعيين المسيو بونصو خلفاً له من اقرب التوسعيين الى القضيـــة السورية مودة ، وانه الوحيد الذي اظهر عطفاً او تظاهر به ؟ . هذه اسئلة ليس من المستطاع الجواب عنها الآن بل تترك الى الاجيال القادمة ، وربما عرف عنها اخواننا في اوربا ومصر اكثر منا .

وفي صباح الجمعة الواقع في السادس والعشرين من شهر شباط المذكور غادر المجاهدون قرية « دامه » الى لب اللجاة في حوران فاحتلوا - من غير مقاومة تقريباً - قرية جـــدل وسائر القرى الاخرى ، وانهزم من امامهم طلال بن ابي سليمان واحمد الفصين وغيرهما من الشيوخ الذين ابتـــاعتهم الدولة المستعمرة بالدراهم البخسة . ومن ذلك اليوم اصبح اللجاة في قبضة الثوار الى نحو المنتصف من شهر نيسان اذ استعد الجنرال « اندريا » للزحف على السويداء .

وغير نكير ان الفرنسويين اهتموا اشد الاهتمام لسقوط اللجاة بيد المجاهدين وعرفوا ان اتصالهم بحوران ولا سيما بقلعة بصرى الشام ودرعاة اصبح مهدداً لأن قرية خبب الواقعة على السكة الحديدية الحورانية لم تبعد عن « صور اللجاة » غير ساعتين .

بيد ان العربان في اللجاة - الا القليلين منهم - وقفوا انفسهم

لخدمة الفرنسويين فكانوا عقبة في سبيل الثورة كؤوداً ، ولا انكر ابداً الخطأ الذي ارتكبه بعض المجاهدين بقتلهم اخا طلال المذكور مما ادى الى حرب عوان بين العربان وبين المجاهدين معمنا طلقات نيرانه في قرية « صور » ، ومن المؤسف كثيراً ان يقع على مهاجري الاقليم ثأر هذا القتل فقد رأيتهم في قرية «لبين» وهي من قرى اللجاة ، في مساء الجمعة الواقع في التاسع من شهر نيسان بحالة تفتت الاكباد وذلك بعدما اكتسحت ديارهم الجيوش المستعمرة ومن ورائهم شراذم المأجورين والمتعصبين .

ويقول الدكتور شهبندر في ختام مذكراته ان سبب تركي السويداء في تلك الايام الدقيقة التي تتطلب وجودي دائماً في عاصمة جبل الدروز لاحكام الاتصال بين المجاهدين وسفري الى اللجاة هو لأجل الاجتماع بسلطان باشا الاطرش والاتفاق معه على الخطط الحربية التي يجب القيام بها في الشمال والجنوب خصوصاً بعد ما جاءني الى السويداء الحر (جرونكس فان زولن) مندوب المسيو (دي جوفنل) وعرفت منه بعض المعلومات عن الوضعية في سورية . وقد دلت الاخبار فيما بعد على ان هذا المندوب الذي أراد أن يخدم المسيو دي جوفنل خدمة شخصية اصداقة بينهما كان أشد صداقة للثورة وأكثر حباً للحرية . وهذه مقالاته في الصحف الهولندية شاهد عدل على ذلك وقد نشرها بعد ما غادر منطقة الثورة الى بلده «لاهاي» عاصمة هولانده وبقيت الصداقة محكمة بينه وبيني الى اليوم .

ومن أوائل الاشياء التي تم الاتفاق عليها في اللجاة تعيين

مصطفى بك وصفي الاميرالاي أركان حرب قائداً عاماً للغوطة .
وقد قال الدكتور شهبندر في أحدى رسائله «وكان معي في تلك الرحلة الى اللجاة الاخ مصطفى وصفي بك وكان قد جاءنا متطوعاً من الشام بطريق مصر فعمان وكانت غايتي من التعريج على قرية « جدل » في اللجاة الاجتماع بسلطان باشا وتوحيد الخطط الحربية بين الغوطة والجبل لأنني رأيت الفوضى من أكبر الاسباب التي جعلت أهم المساعي تذهب عبثاً؛ وكانت نيتي من الذهاب الى الغوطة في تلك الايام العصيبة التي انتشرت فيها الدعايات الممزقة ايصال الاخ مصطفى بك الى الغوطة وتعيينه قائداً عاماً لتلك المنطقة .
وفي صباح السبت الواقع في اليوم العاشر من نيسان ضربنـــا المدفع من بصرى الحرير ونحن في قرية « لبين » فنزلت بجوانبنا قنابله واحدى الشظايا نزلت في البيت الذي بتنا فيـــه وهو بيت رجل وطني حر اسمه شاهين حيشاوي فقلت في نفسي عجباً أأنجو من القنبلة التي سقطت من الطيارة بين رجليّ في السويداء لأصاب بشظايا قنبلة من بصرى الحرير في لبين ؟ »
وصل الدكتور في الضحى الى قرية « جدل » فاجتمـــع بسلطان باشا وبالمجاهدين وفي المقدمة المرحوم الشهيد أحمد مريود وهناك توحدت الحركات وتم الاتفاق على بعض الخطط الاساسية وهناك جاءتهم الاخبار بحرق قطار كامل من قطرات حوران مركباته تبلغ الاربع والعشرين أحرقه المجاهدون .
ومن ثم ودّع الاخوان وعاد الى دامه ومنها الى وقم فخرصا فصميد حيث نزل هو واخوانه ببيت المرحوم جبر شلفين فاستقبلتهم

صاحبة البيت خير استقبال وكانت مثلاً في صفات الكرم والرجولة العجيبة التي تملأ العين . وقد ظهرت لهم في هذه الرحلة طبيعة اللجاة العجيبة وما فيه من شقوق تكاد تكون حصونا اصطناعيــة لمن يحتمي بها . قال الدكتور في كتابه « وقد اجاد ذلك العالم الجيولوجي الذي شبه اللجاة بحراً كان هائجاً فجمد فجأة على هيجانـــه بحيث أحدث تلك التضاريس والتلال المتموجة » وفي المساء وصلنا قرية خلخلة فنمنا عند أبي شاهين المغوش وفي صباح اليوم التالي مررنا على قرية « الصورة الكبرى » فراعني ما سمعت فيهـا من أخبار التعدي على دروز الاقليم وهم نازلون بهـذه القرية في طريقهم الى « السويداء » فقلت اذا كان ثمة ما يقال من وجود ثارات بـــين عربان اللجاة وأبناء بني معروف فأي عذر هنا يا ترى بين الدروز بعضهم مع بعض وقد أبت نفـي النزول هنا وأرسلت الى بيت زهر الدين خبراً بما أصابني من هزة عنيفة لهذا النبأ المزعج والغدر غير المنتظر . وقص علي في جهات الصورة الكبرى ابراهيم بـك الحاصباني حديث اغتيالي مرة ثانية وهو ما شهده بعينـــه في قرية « ام ولد » **قال كلف الفرنسويون ظاهر بك القنطار ان يغتالني ويأخذ على ذلك مكافأة خمسة آلاف جنيه عثماني ذهبا وكان قـد** نقل مثل هذا الخبر اسماعيل عبد الدين لعبد الغفار باشا الاطرش .

وفي اليوم الثاني عشر من نيسـان صباحاً وصلت ومصطفى بك ومن معهما الى قرية (قرحتا) وهنا لاح لنا جبل قاسيون وعلى سفحه الصالحية وحي الاكراد ومآذن الجامع الاموي وقبتـــه الشاهقة ، هنا لاح لي قاسيون لأول مرة بعد غيبتي المديدة فصحت

في اعماق قلبي من لوعة الاسى لقد هلع فؤادي من رؤيتك يا دمشق أنت سبب هذا البلاء وهذه الاحزان وانت منشأ هذا المجد وهذا الفخار ، منك يأتيني الشقاء ومن ارجائك تهب في نفسي نفحات الالهام وسأصبر عليك حتى أحقق الغاية التي عاهدت نفسي ان احققها لأجلك ولاجل سائر الوطن المفدى . »

وقضينا ليلتنا في (قرحتا) وفي الصباح وصلنا (زبدين) فاجتمعنا ببعض المجاهدين أمثال سعيد العاص ومنير الريس وسعيد الترمانيني وغيرهم . وفي اليوم الخامس عشر من نيسان ألفنا مجلساً وطنياً كبيراً ضم جميع الممثلين عن المجاهدين في منطقة الشمال وقرروا فيه تعيين مصطفى بك وصفي قائداً عاما لأن المنطقة كانت في اشد حاجة الى التنظيم . ولما شعر الفرنسويون بمجيء الدكتور الى الغوطة قاموا وقعدوا واضطربوا اشد اضطراب فبثوا العيون والارصاد حتى اذا علموا انه دعي الى تناول الغداء في قرية عقربا في اليوم السابع عشر من الشهر المذكور امطروا هذه القرية وابلاً من القنابل في ساعة الغداء كأن هذا الضرب كان على ميعاد . ثم انه جعل مقره في قرية « الحديثة » حيث يقيم البطل المغوار نزيه بك المؤيد العظم . ولكن من سوء الحظ ان مرض البرداء او ما يسميه الاطباء ملاريا كان قد أناخ على الأخ النزيه فكاد يقصم ظهره ويأكل عظمه ولم يكن للكينا عليه أقل تأثير مما اضطر الدكتور شهبندر الى نقل الأخ النزيه الى الجبل حالاً للابتعاد به عن تلك الاراضي الرطبة الموبوءة . وجاء هذا النقل في الساعة التي اجمعت فيها الاخبار على ان دسائس الدساسين اخذت

تنتشر في الجبل بصورة مريعة مما يهدد وحدة الثورة وكيانها وهذه الوحدة قائمة من اساسها على التعاون الوطني الصميم البعيد عن كل نزعة طائفية اراد أن يتغنى بها الدساسون ويتخذوها ذريعة لالقاء بذور الفساد . وفوق ذلك كله فقد تضافرت الاخبار من العيون والارصاد على ان الجنرال أندريا يعد عدته لمهاجمة السويداء فسفر الدكتور اليها اصبح امراً لازماً لازباً لا مفر منه . وهكذا شد الرحال فوصل اليها هو واخوانه في ادق الاوقات . وهنالك عقدت الاجتماعات واتخذت القرارات بوجوب المقاومة حتى النفس الاخير واجمعت الكلمة على ان طريقته في الكلام وخطبه الرائعة في حلقات المجاهدين وتفانيه في حب الوطنيين المخلصين على السواء من غير تفريق في البقعة والنحلة والمذهب كل ذلك كان السبب الذي اعاد الثقة الى النفوس واشعل نيران الحرب مرة ثانية .

شهد الزعيم الشهيد ونزيه المؤيد ومصطفى العظم واخوانهم معركة السويداء على التل بالقرب من القلعة فقال في بعض رسائله «شهدت اليوم - الأحد ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٦ - معركة من اعظم المعارك وهي مهاجمة السويداء فقد ابتدأ ضرب الدبابات بقنابل «السربند» والرشاشات في الساعة ١٢ والدقيقة الثلاثين عربية صباحا ودام ساعتين ثم انقطع ربع ساعة وباشر ثانية وبقي زيادة على ساعة وبعد ثلاث ســـاعات ونصف حلقت في السماء احدى عشرة طيارة صبت نيرانها على السويداء بصورة فظيعة من قنابل ورشاشات. والآن والساعة الرابعة والنصف ولم يهدأ ضربها . والدخان والغبار والاحجار المتبعثرة قد ملأت عنان السماء ، ومن الأسف ان مدفعنا الكبـــير الذي اخذناه من الفرنسويين « انسطح »

– يعني انفجر – بعد اطلاق بضع قنابل فقتل رجلاً من اخواننا الواقفين بجانبه والجو من الصباح مملوء بالابخرة ، والهواء يهب من الشرق بصورة مزعجة . وقد اضطررنا الى النزول والوقوف في الطريق العام في العراء من اجل الجرحى واسعافهم فمر علينا منهم عدد كبير منهم ابن جربوع وغيره فضمدنا جراحهم وساعدنا في ذلك نزيه بك ومصطفى بك ورفعة البيلاني مساعدة تذكر فتشكر.
ومن اسوأ الحوادث التى تحققتها بنفسي ان ثلاثة من المغـــاربة تقدموا للاستسلام والاصح للانضمام الى الثورة فلما ناول الاول منهم بندقيته لسعيد ابي حلا ضربه هذا بها فقتله فسدد الاثنان الباقيان بندقيتهما فقتلا محمد البارو كي وحسن علم الدين .
ولا شك عندي ابداً ان عمل سعيد ابي حلا هذا لم يكن عن سوء قصد وتصميم سابق بل عن عدم تقدير الموقف والتفات الى المصلحة. وهذا من سوء الحظ لاننا كنا نطمع دائماً في استمالة هؤلاء الجنود الشرقيين العرب الى جانبنا ولنا مساع في هذ الباب جرت في سنة ١٩٢٦ وهي على جانب عظيم من الخطورة وربمـــا كان يكتب لها النجاح لو بقيت الثورة على حولها وطرلها » .
وبعد ما احتل الفرنسويون السويداء انسحب المجاهدون الى الشرق فنزل سلطان باشا واخوانه على « عين الحشبة » الى الشرق من قرية الرحى ونزل الدكتور شهبندر واخوانه بقرية « سالة » وآخرون نزلوا بالعانات او بغيرها من قرى المقرن الشرقي ولكنهم كانوا على اتصال تام فيما بينهم . ومما حدث في تلك المدة ان « المستر دوصن » الاميركي المشهور وهو ابن رئيس مدرسة الاتام للأطباء

والجراحين في نيويورك جاء لزيارة الدكتور شهبندر في الثورة بوصاية خاصة ومعه الدكتور منير شيخ الارض فلاقته الطيارات وهو في السيارة على قرية عرمان فامطرته وابلاً من القنابل اصاب سواقه فكاد يقضي عليه وكان لهذه الحادثة شأن كبير في وقوف المتردوصن بجانب الديون الأمريكية على فرانسة ووجوب المحافظة عليها خشية أن يذهب كل توفير اهمل الطيارات الحربية وقتل السوريين بفرقعاتها . وقد جمعه الدكتور شهبندر بسلطان باشا الأطرش وبالمرحومين أحمد مريود وعادل نكد وَنزيه المؤيد وبغيرهم من المجاهدين في بيت نجم الأطرش شيخ عرمان وفي بيت الوطني الحر جابر الصغير فأثرت في نفسه رؤية الثوار تأثيراً عظيما

وفي « سالة » هذه التحق بالدكتور شهبندر عدد من الجنود التونسيين كانوا قد فروا من الجيش الفرنسوي قبيل معركة السويداء ولاقوا في طريقهم مصاعب جمة لا محل لذكرها هنا فمنهم من سافر الى عمان ومنهم من سافر الى الغوطة بطريق البثينة فأبلى في الثورة بلاء حسنا وسقط أكثرهم في ميدان الشرف .

وتناول الدكتور في سالة رسالة بالفرنسوية بقلم المرحوم المجاهد عادل نكد فيها تصريح خطير بما يأتيه بعض المفسدين الدخلاء على الثورة في المقرن الشرقي من الأعمال المنكرة التي تسيء الى السمعة كثيراً ولا يجوز نشرها الآن .

وعقد عنده في هذه المدة زعماء بني معروف اجتماعات خطيرة منها اجتماع عقد في سالة في ١٧ ايار سنة ١٩٢٦ وحضره الشيخ أحمد الهجري وعبد الغفار باشا الأطرش وأبو نايف عبيد وأبو علي هاني

وعادل نكد وسليمان نصار وغيرهم تناولوا فيه البحث عن موقف الثورة الحربي العام وعن الوضعية السياسية الحاضرة.

وكان الدكتور يروح ويغـــدو من حالة في زيارته القرى وتشجيعها على الثبات وفي التل بالقرب من قرية المغير عند ابي نايف حسين الأطرش مرّت عليه في اليوم العشرين من ايار ١٣ طيارة ضربت قرية الغارية والعانات ضربا مبرحا وغايتها في ذلك إرهاب المجاهدين النازلين هناك وعلى رأسهم الأمير حسن الأطرش فكان الموقف دقيقاً جديداً .

وفي يوم الجمعة الواقع في ٢١ ايار غادر الدكتور واخوانه المغير بطريق الغارية الى أم الرمان حيث نزلوا على الرحب والسعة عند الوطني الصميم أبي حمد النبواني وقابلوا سلطان الأطرش والشيخ زين الدين وغيرهما من مفاخر الرجال . ولاشك ان أم الرمان هذه بلدة الصدق والكرم والجهاد الوطني الخالص ولها المقـــام المحمود في تاريخ الثورة المباركة . وفي اليوم التالي تناول رسالة من أبي نايف حسين باشا — ٢٢ ايار . تنبيء بوصول المرحوم رشيد طليع الى قرية امتان لعقد جلسة مع المستر (كرك برايت) في خربة «أم الجمال» ولاتزال الاسرار تحيط بهذا العمل ولا شك ان الدكتور توصل الى كشف الشيء الكثير على حقيقته .

وبعد ما احتل المجاهدون الازرق صار الدكتور واخوانـه يترددون اليـــه والى مضارب الحرشان في الشرق العربي كما يترددون إلى الجبل. وفي اليوم السابع والعشرين من حزيران سنة ١٩٣١ أرسل رسالة مطولة الى سلطان باشا أطلعه فيهـــا على

الميثاق الذي كتبه بالاشتراك مع اخوانه حسن الحكيم وسعيد حيدر وذلك تمهيداً لتسليمه للملك فيصل وهو قادم من بغداد في تلك الايام بطريقه الى أوروبا كي يعاون سورية في تحقيق مطالبها .

وفي صباح الجمعة الواقع في ٢ تموز قبل الشروق كان الدكتور شهبندر على طريق بغداد الى الجنوب من القياسة ومعه سلامة الأطرش والامير حسن الاطرش وعلي المصطفى الاطرش ونزيه المؤيد العظم وأبو حمد يوسف العيسمي ومتعب الاطرش وعلي ذوقان الاطرش وغيرهم وبعد انتظار ساعة أطل الملك من سيارته فظن الواقفين يقطعون عليه الطريق فأخذ احتياطه ولكن عند تعارف الوجوه تحول الحذر الى ملاقاة مؤثرة انحدرت عندها الدموع ، وبعدها عقدت جلسة في تلك الصحراء المنقطعة حضرها من ذكرنا وكان مع جلالة الملك رستم بك حيدر وتوفيق بك السويدي وتحسين بك قدري ودار البحث فيها حول الميثاق المذكور وما اقترحه سلطان باشا من الاضافة فأطرى الملك هذا الميثاق وقال انه معمول بحنكة سياسية لأخذ الفرنسويين بحجتهم وطلب الدكتور فوق ذلك حذف كلمة « مثل » في جملة «طلب معاهدة سورية مثل معاهدة العراق» لان السوريين يطمحون الى أبعد من ذلك .

ومما حدث في تلك الأيام أن الدكتور عقد اجتماعا في احدى القرى الحورانية المتطرفة واسمها البويضة لاجل الاتفاق على العمل مع الحورانيين واثارتهم ، فكان ممن حضر هذا الاجتماع فواز البركات وعلي خلقي وخلف التل وعقله القطامي وعواد

الماضي وسلمان السوري وابن اسماعيل الترك والشيخ سعيد الباني ونسيب بك البكري فتقرر ارسال مفرزة من البدولاجل المباشرة بالعمل من خربة على الحدود فتم ارسالها في اليوم الثاني بهمة الشيخ درداح وصايل من رجال بني صخر .

غادر الدكتور شهبندر الأزرق الى جبل الدروز لآخر مرة في اليوم الاول من تشرين الاول سنة ١٩٢٦ ومعه نسيب بك البكري وعبد الغفار باشا الاطرش وعلي عبيد وجاد الله الاطرش فوصلوا غرابة وخربة الحازمة في صباح اليوم التالي ومروا امام الجيش الفرنسوي النازل بتل الخضر في قرية امتان فكان مرورهم من هناك والطيارات تحلق فوق رؤوسهم خطراً عظيما . وفي خربة الحازمة هذه عقد الدكتور شهبندر وسلطان باشا جلسة خطيرة نهائية تتعلق باللجنة العليا وبالتنظيم الاداري الذي جاء من اجله فلم تنته المباحث الى نتيجة وفي المساء خرجوا منها لقربها من المعسكر الفرنسوي وكثرة العيون والارصاد ، وفي الليل ناموا ونام المجاهدون من حولهم على شقيف من الصخر في العراء وفي الصباح عقدوا اجتماعاً في مغارة الدبكية لأجل هذا الموضوع ، وهنا قدم عليهم فارس فرج من الغارية واسمعيل الحجلة من المشقوق وسليم الجرمقاني من صرخد من قبل الفرنسويين يطلبون كف العصابات زاعمين ان الفرنسويين ينيلون البلاد حقوقها ، فاجابهم الزعماء بان المجاهدين يكفون عن القتال اسبوعاً على شرط ان تلزم الجنود مراكزها وتبدأ المفاوضات ، وهذا الكلام كان في الواقع من باب التسويف والمناورات ، وفي المساء غادر الجبل

نهائيـــا سلطان باشا الاطرش والدكتور شهبندر ونسيب بك البكري فتمشوا خلسة في بيت شيخ العانات وهي قريبة على مرمى الرصاص من معسكر الفرنسويين في تل الحضر .

وفي الهزيع الاول من الليل طلبوا الأزرق فوصلوه في الضحى وهذا التاريخ (الاثنين ٤ تشرين الاول سنة ١٩٢٦) هو تاريخ خروج هؤلاء الزعماء لآخر مرة من جبل الدروز ثم عقب ذلك طُلب الدكتور شهبندر الى الولايات المتحدة ، ولكنه قبل ان يسافر اهتم كثيراً لمعالجة الفوضى فعقد اجتماعاً في مساء الاربعاء في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٢٦ في بيارة تدعى « البيارة التركية » في يافا مع الحاج امين الحسيني وحسن بك الحكيم والحاج عثمان الشرباتي فتم الاتفاق بين المجتمعين على التنظيم ومنع اي توزيع من الاعانات بصورة فردية وعلى تأليف لجان في المناطق المختلفة ليكون التوزيع تحت اشرافها وعلى وضع ميزانية ثابتة للجهات . وتم التفاهم على جعل حصة جبل الدروز ٥٥ ٪ وحصة الغوطة ٣٠ ٪ وحصة اللجاة ١٥ ٪ من مجموع الاعانات ، وكان ممن حضر هـــذه الاجتماعات راشد الذوق وعجاج نويهض وحلمي أبو خضرا ، وفي الساعة الاولى من بعـــد ظهر السبت الواقع في ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩٢٦ غادر الزعيم الشهيد منطقة الثورة نهائياً الى العراق بالاتفاق مع اخوانه ومع الحاج أمـــين الحسيني تلبية للدعوة التي أتته من الولايات المتحدة كما ذكرنا وكان معه مظهر البكري سكرتيراً وسافر في القافلة نفسها وفد المجاهدين الى العراق برئاسة حسن بك الحكيم وعضوية الاستاذ محمد الشريقي

والسيد عبد اللطيف المسلي فوصلوا الرمادي بعد ثلاثة أيام. وكان لهم ذلك الاستقبال الباهر والاقبال العجيب واحدثت خطب الزعيم الدكتور شهبندر ومقابلاته واحاديثه دويا في انحاء العراق مما هو مدون في الصحف والرسائل ولا حاجة بنا الى ترديده واعادة ذكره . غير ان الحكومة البريطانية حالت دون سفره الى الولايات المتحدة وابقته في العراق الى ما بعد انعقاد المؤتمر الذي دعي اليه ولكنها في اليوم السادس من ايار سنة ١٩٢٧ سمحت له بالسفر الى اوروبا بطريق مصر فغادر بغداد على متن الطيارة في صباح اليوم التالي - السبت ٧ ايار سنة ١٩٢٧ - فبات مساء في غزة هاشم وفي صباح الأحد ظهر فجأة في القاهرة بين اولاده فاحتجت فرانسة وانكلترا على وجوده في القطر المصري ولكن الأحرار المصريين انتصروا له وبعد اخذ ورد ومجادلات سياسية عنيفة امتلأت بأخبارها الصحف سمح له بالبقاء .

مأساة فلسطين

الدكتور شهبندر يتكهن عن وقوعها

وينذر الفلسطينيين بسوء المصير قبل عشرين عاماً

لقد كان الفقيد الراحل الدكتور عبد الرحمن شهبندر طيب الله ثراه نافذ البصر والبصيرة في القضايا العربية، وكانت له نظرات ثاقبة وآراء سديدة لو عملت بها الشعوب العربية لما وصلت الى ما وصلت اليه من تخاذل وانقسام، ولما تمكن العدو الغاصب من مهاجمتها في عقر دارها وسلبها اثمن ما تملكه من تراث وامجاد.
وكانت له في خدمة القضية الفلسطينية ونصرة عرب فلسطين جهود جبارة وجولات موفقة ولكنه - على ما يظهر - كان ضعيف الأمل بنجاح تلك القضية ما دامت الامور تسير على ما كانت تسير عليه في السابق، وكأنه كان يقرأ من وراء الغيب صحائف المستقبل ويدرك الاخطار التي تحيط بذلك الكنز العربي الاسلامي السليب.

وقد بعث الينا (تغمده الله برحمته ورضوانه) عام ١٩٣٥

(اي قبل عشرين عاماً) بهذه الرسالة الخالدة لنشرها في جريدة الجامعة الاسلامية التي كانت تصدر في مدينة يافـــا وكنا نتولى تحريرها باشراف صاحبها الاستاذ الجليل الشيخ سليمان التاجي الفاروقي (امد الله في حياته) وقد نشرت في حينهـــا وهي تنطوي على انذار صريح للشعوب العربية عامة ولأبناء فلسطين خاصة بما يتهددهم من خطر جاثم وينتظرهم من مستقبل قاتم ، وتكهنات عجيبة بما وقع من مفاجآت وتطورات وحوادث . .

وقد رأينا ان نختم بها هذه المذكرات التي وضعها الفقيد عن سورية وما فلسطين الا جزء حساس من الوطن السوري الكبير :

ماذا تقولون للأجيال اللاحقة اذا انتم غادرتم الساحـــل والاماكن الى الداخل ثم غادرتم الداخل والحواضر فخضتم الاردن الى عمان ومنها ضربتم مشرقين تهيمون على وجوهـــكم لتجدوا لكم مأوى يحميكم ويحمي اطفالكم من الحر والقر فلم تجدوه في غير خرائب جدودكم الامويين في (الخرابة) وعمرة والأزرق وما الى ذلك من الاطلال البالية والمعالم الخاوية الخالية؟ . .

ماذا تقولون للأجيال اللاحقة اذا انتم انهزمتم من الحضارة ولجأتم الى البداوة وخالفتم سنة الارتقاء الصحيح فعدتم من الحجر الى المدر ومن المدر الى الوبر واستبدلتم بالمركبات والسيارات البهائم والابل ترعونها في الفيافي والقفار وتوردونها ماء القيامة والفيافي وجبال الملح ووادي السرحان ؟

ماذا تقولون للاجيال اذا انتم تركتم حدائق غزة ويافا وحيفا وعكا الغناء وجبال نابلس والقدس والخليل الخضراء وما بينهـــا

من المروج الزاهية الخصبة ونزلتم بالبلاقع الجرداء لا تجدون فيها ما يروي الظمأ ويسد الرمق ؟

ماذا تقولون للأجيال اللاحقة اذا انتم خرجتم من دوركم وقصوركم ومنازلكم ووراديكم ولجأتم الى بيوت الشعر من الطراز الصغير الحقير ذات العمود الواحد والقماش المقطع المرقع من غير ان تكتسبوا من هذه البداوة ما في البداوة العريقة من شجاعة وصدق وامانة واباء .؟؟...

ماذا تقولون للاجيال اللاحقة اذا انتم وليتم الادبار من بيت المقدس فتركتم فيها اقدس تراثكم - تركتم قبلتكم الاولى وحرمكم الثاني تذكاراً بيد الصهيونية المنظمة النشيطة المتهبة فتدع على ابوابه الحراس وبيدهم الكوشانات ليقبضوا منها الاجرة من المتفرجين على آثار العرب الخالية في فلسطين وعلى ما كان لهم من مسجد يصلون فيه وصخرة لنبيهم يتبركون بها وجامع لخليفة من اعظم خلفائهم ، علم الناس في المشرق والمغرب كيف تحفظ العهود وتحترم العقود ؟

بل ماذا تقولون للاجيال اللاحقة اذا اصبح الاولاد يقرأون الخطوط العربية المنقوشة للزائرين كما يترجم الادلاء الهيروغليفية للسياح . اتقولون لهم اننا بهرنا المال وخطف ابصارنا وهج الذهب فبعنا تراثنا ومجدنا وكرامتنا بالدرهم والدينار ؟ انسجلون على انفسكم للابناء والاحفاد انكم اقل وطنية وقومية وعقيدة من اليهود ؟

ماذا افادكم دين العرب وفضل العرب وعلم العرب ومجد العرب

وفتوحات العرب اذا انتم تنازلتم عن هذا التراث الدائم الغالي بالرخيص الموقت البالي ؟

ولعمر الحق لو انكم صمدتم ودافعتم وقاتلتم حتى خررتم صرعى في ميدان الفخر فتمشي اعداء الوطن على هامكم واشلائكم الى بيوتكم ومساجدكم وبيعكم ومدنكم وقراكم ودساكركم فاحتلوها لعذرتكم الاجيال اللاحقة لان الموت في سبيل الاوطان ليس عاراً وان العار ان يبيع المرء مجده بالدراهم....

وهذه الجنيهات المحفوظة باسمكم في المصارف مهما بلغت قيمتها ليست لكم بل ستعود الى جيب الذين ضحكوا على العرب بها. لان المال حتى ما اتى منه بالسبل القويمة لا يدوم فما بالك بالذي اتى بالسبل المعوجة .. بالسمسرة الوضيعة والحيل الشنيعة على ان الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها والنبيل يفترش الارض ويلتحف السماء في موطن الآباء والجدود ولا يقبل بديلا عنه قصراً في المنفى وجنة في ديار الاغتراب .

القاهرة ١٥ آذار سنة ١٩٢٥

عبد الرحمن الشهبندر

فهرس

منشورات

دار الجزيرة للصحافة والنشر

عمان – صندوق البريد ١٤٩

هاتف ٣٩٥

•

فيصل بن الحسين	لناشر هذا الكتاب
زبدة التاريخ العام	» » »
النهضة العربية	للامير شكيب ارسلان
فلسطين الدامية	لناشر هذا الكتاب
الحبشة المسلمة	» » »
سعود في الأردن	» » »

مطابع دار الكشاف . بيروت